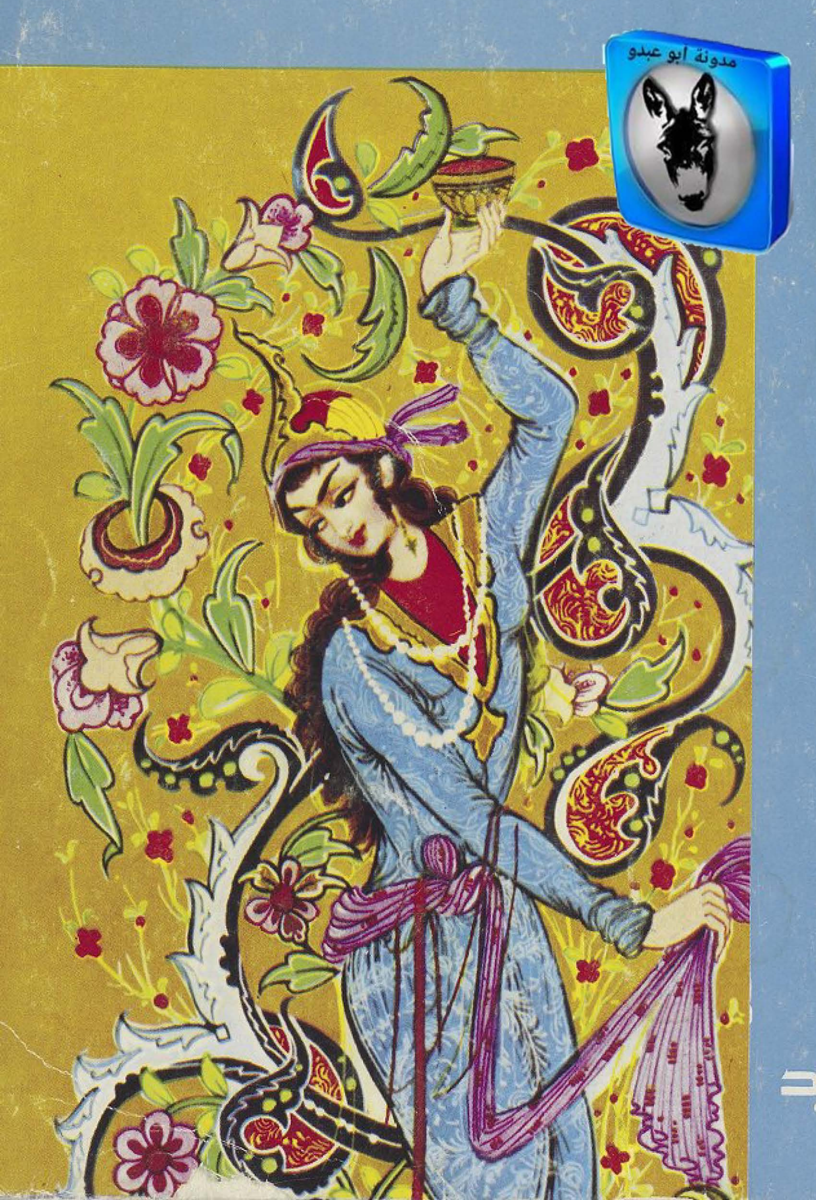
الدكتور

صلاح الدين المنجد

الحياة الجنسية عند العرب

من الجاهلية الى أواخر القرن الرابع الهجري



دار الكتاب الجديد

بيروت • لبنان

الحياة الجنسية عند العرب

من الجاهليـــة

إلى أواخر القرن الرابع الهجري

الدكتور صلاح الدين المنجّد

الحياة الجنسية عند العرب

من الجاهليّة الى أواخر القرن الرّابع الهجري

الطبعة الثانية موسّعة

دار الكتاب الجديد
بيروت • لبنان

دار الكتاب الجديد

الطبعـــة الثانية

بيروت ١٩٧٥

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بالكتاب

لأديب الشام الكبير الأستاذ شفيق جبري [1]

كلما تصفحتُ معجماً من معجمات لغتنا دُهشت من كثرة هذه الألفاظ الدالة على ما نسميه في عصرنا هـذا : الحياة الجنسية ، فلا أشأ أن أعرف وضعاً من أوضاع المرأة أو الرجل في هذا الباب إلاّ عرفته ولا أشأ أن أهتـدي إلى لفظ يدلّ عليه إلاّ اهتديت ، وكنت أسأل نفسي هذا السؤال : هل نجد في لغة من لغات العالم ، قديمها وحديثها ما نجده في لغتنا في هذا المعنى ، وهل عنيت أمـة من أُمم هذا العالم بمثل ما عنينا بـه في الحياة الجنسية ، ولست أعرف السرّ في هذا الأمر ، هل هـذا كله راجع إلى طبيعة البيئة التي نشأ فيها العرب في ماضي الدهر ؟ وإذا نظرنا في الأخبار التي تتناهى إلينا عن بعض المترفين في هذه البيئة يومنا هذا أدركنا انسجاماً غريباً في هذه العناية بالحياة الجنسية في مواضي الأيام وبواقيها .

---

(١) يسرنا أن نفتتح هذه الطبعة الثانية من الكتاب بما كان كتبه أديب الشام الكبير الأستاذ الجليل شفيق جبري عن الطبعة الأولى في (مجلة المجمع العلمي بدمشق ، المجلد ٣٤ (١٩٥٩) ص ٣٤٥) .

فهل من بدعةٍ في جمع أخبار هذه الحياة التي ملئت بها كتب أدبنا القـديم ، أفلا تؤلف هذا الأخبار جزءاً عظيماً من هذا الأدب، في منظوم القول ومنثوره، أفلا يجب علينا أن نهتمّ بكل جزءٍ من أجزاء هـذا الأدب حتى نعرف خصائص طبائعنا وأمزجتنا ؟

هذا ما فعله الدكتور صلاح الدين المنجد مدير معهـد المخطوطات في جامعة الدول العربية ، في كتابه : الحياة الجنسية عند العرب ، فقد استقصى في أخبار هذه الحياة من أيّام الجاهلية المتأخرة إلى منتهى قرن الهجرة الرابع ، وما أظن أن أحداً جمع ما جمعه في هذا المجال ، فقد تكلّم على الحياة الجنسية في العصر الجاهلي والإسلام وأيام بني أميّة وبني العباس وانحدر إلى طبقات الشعب فتتبع قصص هذه الطبقات في هذا الموضوع ، ثم أشار إلى لغتنا الجنسية ، وقـد أعانه مركزه في معهـــد المخطوطات على الاطلاع على ما لم يطلع عليه إلاّ القليل ممّا يتّصل بوصف الحياة الجنسية .

لم تعوز الدكتور صلاح الدين المنجد الجرأة على هذا التأليف كما لم تعوزه من قبل الجرأة على تأليف كتابه : جمال المرأة عند العرب ، وقد تولـّى الدفاع عن عمله بقوة عجيبة من الحجج والمنطق حتى كاد يقطع السبيل على كل من تحدّثه نفسه بشيء من التنطس أو التوقـّر ، فقد دافع في مقدمة كتابه عن طبيعة تأليفه دفاعاً لا أكاد أجد فيه مغمزاً من المغامز، وأيّد دفاعه بطائفةٍ من الاستشهادات واسعة الآفاق لا أرى فيها مجازاً إلى الاعتراض .

ولست أرى حاجة إلى أن أذكر أنه رصف أخباره رصفاً سلسلت فيه لغته وسهلت تراكيبه بحيث خلا من كل غمغمة أو جمجمة ، انـّا نعيش في عصرٍ أصبحت فيه مواجهة الحياة الواقعة أمراً لا مندوحة عنه وأظن أن الهرب من هذه الحياة الواقعة انما هو من خطأ الأمور، فلماذا نهرب من أمرٍ نجعله أحاديثنا في مجالسنا وخلواتنا ، ولا سيما إذا خلت هذه المجالس من كل كلفةٍ أو تصنع ، لمـاذا نهرب

من أمرٍ عليه مدار الحياة كلها ، ولست أعني بهذا أنه يلزمنا أن نقصر كل همنا وفكرنا على الحياة الجنسية فلا نهتم بآفاق الحياة الباقية ولا نفكر فيها ، وانما أعني بكل ما قلته أنه لا ينبغي لنا أن نتظاهر بالعفة في أمرٍ من أمورنا ونحن نحلم بهذا الأمر في اليقظة والمنام .

وهل عليّ من حرج إذا قذفت برأي خاص في هذه السبيل ، فانني أعتقد أن أُدباءنا في القديم إذا كثرت مؤلفاتهم الأدبية هذه الكثرة مما لا نكاد نجد له شبيهاً في العالم ، فالسبب في وفرة إنتاجهم أو من أسباب هذه الوفرة نشاط غرائزهم ، ولو كانوا يعانون ما نسميه كبت الغريزة لعميت قلوبهم وصدئت خواطرهم ولما نعم ميراثنا الأدبي اليوم بما ينعم به من مؤلفات منقطعة النظير .

شفيق جبري

مقـدّمة الطبعـة الثانيـة

ما كادت الطبعة الأولى من هذا الكتاب تصدر في عام ١٩٥٨ حتى أقبـل عليها القراء بنَـهَم وشوق ، كأن فيها غذاء لأرواحهم وشفاء لغرائزهم . وما هي إلا شهور حتى نفدت النسخ من الأسواق ، فكأن هذا الاقبـال الشديد على الكتاب كان يعبّر عن سمة من سمات هذا العصر المضطرب المتفجّر الذي نعيش فيه ، من إقبال أهله ، على اختلاف ألوانهم ومشاربهم ، على كل ما يتصل بالجنس بسبب .

وقد كنت ، منذ صدور الكتاب ، اقتطف أثناء مطالعاتي كلّ ما يمر بي من الأخبار المتعلقة بالحياة الجنسية عند العرب ، فتوفـّر لدي من ذلك مادة خصبة دفعتني إلى إعداد هذه الطبعة الثانية الموسّعة من الكتاب .

ولست أزعم أني ذكرت عن الموضوع كلّ شيء . فما زالت هناك أخبـار كثيرة عن الجنس لم نطلع عليها . فما عرفنا أمة اهتمت بالجنس كالعرب . وما نجده اليوم في أوروبة من اهتمام بالجنس ما هو إلا قطرة مما عرفه العرب وجرّبوه، ولو سُمح بنشر جميـع المخطوطات الجنسية العربية لكان منها مكتبة لا تضاهيها أي مكتبة بين تراث الأمم الأخرى .

بيروت ـ كانون الثاني ١٩٧٥ صلاح الدين المنجد

مقدّمة الطبعة الأولى

هذه دراسات جديدة عن الحياة الجنسية عند العرب ، منذ الجاهلية المتأخرة إلى أواخر القرن الرابع الهجري ، والقرن العاشر الميلادي .

ونقصد بالحياة الجنسية ، وبالجنس ما يُقابل بالفرنسية :

« La vie sexuelle, Le sex »

وقد يستغربُ بعضهم طَرْقنا هذا الموضوع ، كما استغربوا من قبل يوم أصدرنا كتابنا « جمال المرأة عند العرب » . فقد اعتاد بعض الناس أن يتحدثوا عن المرأة والجنس همساً . وأن يحيطوا أخبارهما بالكتمان ، ويروا أن التحدث عنها علانية من العيب ، بل قد يتّهمون من يتحدث عنها بضعف الخلق والاستهتار . رغم أن الجنس شيء يخلقه الله فينا ساعة نخلق ، وهو أساس حياتنا ، يكون فينا قبل أن نحب وأن نتزوج ، فهو شيء لا تقوم الحياة إلا به ، وعليه . وهو الذي يؤثر إلى حد كبير في نشأتنا وسلوكنا وتفكيرنا .

فبدلاً من تدريس الأمور الجنسية تدريساً علمياً نقياً ، وتفهيمها تفهيماً دقيقاً ، للاطلاع عليها ، ومجابهة مشكلاتها ، وتوجيهها وجهة صحيحة تبتعد بها عن الالتواءآت التي توصل إلى المرض ، ثم إلى التبذّل والاستهتار ، نجد الكثرة من الناس يتحدّثون عنها بلهفة ورغبة ، ولكن همساً . كأنها شيء شائن مُعيب ممنوع ، ثم يتهافتون سراً في الظلام وفي الخفاء ، على قراءة كتب جنسية رخيصة تثير الغرائز وتهيج الجنس ، ويحيطون كل ذلك بالكتمان .

لكن الكتمان والمنع لا يستطيعان أن يواجها الجنس ، هذه القوّة النابضة المتحركة في أعماقنا ، فيؤدي ذلك إلى الكبت ، العنيف عند الشباب والفتيات، ويدفع الكبت إلى عقد نفسية كثيرة يصعُب حلّها والخلاص منها .

* * *

والعجيب أن أجدادنا العرب لم يكونوا مثلنا ، وكان موقفهم من الجنس موقفاً كله حرية وانطلاق . فما كانوا يتحرّجون من الحديث عن المرأة وعن الجنس ، ومن التأليف فيها . وأعتقد أن حريتهم الواسعة تلك، هي التي سبّبت التزمّت الذي نجده اليوم .

تصفّحْ سير اعلام المسلمين – من ابن عباس عم الرسول ، في القرن الأول للهجرة ، إلى الجلال السيوطي ، الإمام الكبير في القرن العاشر – تجد أنهم كانوا لا يروْن بأساً في ذكر أمور الجنس والكتابة فيها . كان ابن عبّاس ينشد الشعر الجنسيّ في البيت الحرام ، وفيه ألفاظ نتحاشى من ذكرها اليوم ، وما كان ابن عباس مستهتراً ولا متبذّلاً ، بل كان حبر الأمة وعلماً من أعلام الإسلام. وألّف السيوطي كتباً عديدة في أنواع النكاح وضروب النساء ، ذكر فيها الأمور الجنسية على حقيقتها ، مما لا يجرؤ أحد أن يكتب مثله اليوم . وما كان السيوطيّ من الخلعاء والفُسّاق ، بل كان من كبار علماء القرن العاشر ، وقد بلغ مرتبة الاجتهاد .

ومثلُ ابن عباس والسيوطيّ كثيرون .

فعلى رأي المتزمّتين ينبغي أن نجعل ابن عباس والسيوطي مستهترين ، لأن الأول أنشد شعراً جنسياً علانية في البيت الحرام ، ولأن الثاني ألّف كتباً في الحياة الجنسية .

وانظر في القرآن الكريم نفسه تجده ساق أموراً جنسية كثيرة ، منها قصة

يوسف ، بإعجاز رائع . وهذه القصّة تمثّل ، أحسن تمثيل ، ما يفعله « الجنس » بالمرأة والرجل ، وكيف يرغّبُ كلا منهما بالآخر . لقد تحدّث القرآن عن ذلك لأنه أمرٌ من صميم الحياة البشرية ، ولو كان التحدّث فيه عيباً لما ذكره القرآن أبداً .

وخذْ أيّ كتاب من تراثنا الأدبيّ القديم ، فإنّك واجدٌ فيه من الأمور الجنسيّة أو ما يدور حولها ، الكثير . فالحيوان ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والكامل للمبرد ، والأمالي للقالي ، والأغاني لأبي الفرَج ، والعقد الفريد لابن عبد ربّه ، والأمتاع والمؤآنسة ، والبصائر والذخائر لأبي حيّان ، ونهاية الأرب للنويري ، والمستطرف للأبشيهي ، كتبٌ كلّها مملوءة بالأحاديث والأشعار والأقاصيص الجنسية ، لم يجد مؤلفوها حرَجاً في نقلها وذكرها . ولم يكن هؤلاء المؤلفون ممن سَفُلَتْ أخلاقُهم أو سقطتْ مروءتهم ، بل رأوا أن تواليفهم لا تكمُل إلاّ إذا تحدّثوا عن الأمور الجنسيّة لأنها أمور من الحياة نفسها .

فلا عيْب إذن في التحدّث عن الجنس كما نتحدث عن المطاعم والمشارب وأمور الحياة ، ولا حرج في التأليف عن الجنس تواليف علمية توضح أموره وتبيّنها . لأنه آن لنا أن يكون للثقافة الجنسية محلّها الخاص ضمن ثقافتنا العامة الشاملة ، شريطة أن لا تهدف هذه التآليف إلى إثارة الغرائز في الشباب والفتيات ، بل إلى تهذيبها وجعلها تنطلق بانتظام .

* * *

هذا الكتاب يعرض عرضاً مركزاً سريعاً كيف كانت الحياة الجنسية عند العرب خلال خمسة قرون ، وهو بحث جديد لم يكتب فيه الباحثون ، وسيكون رائداً لمن يريد كتابة دراسات أوسع عن الحياة الجنسية العربية .

وكان العالم النمسوي Richard Lewinsohn عقد فصلاً عن الحياة الجنسية عند المسلمين في كتابه المسمّى : Histoire de la vie sexuelle لكنه فصل هزيل جداً ، لا يستحق العناية ، لأنه لا يقدّم صورة صحيحة عن الموضوع ، وفاته الاستناد إلى نصوص كثيرة .

ولم يكن من السهل كتابة مثل هذا الموضوع . وقد اضطررنا إلى مراجعة عدد كبير من المخطوطات العربية على اختلاف أنواعها ، لكتابته . وكنا عثرنا على هذه المخطوطات أثناء رحلاتنا العديدة في ألمانيا وإيطالية وفرنسة واستانبول .

وسيُلاحظ القارىء أننا آثرنا أحياناً التلميح دون التصريح ، ولم نشأ أن ندخل في تفصيلات كثيرة رأينا أنها أقرب إلى إثارة الغرائز منها إلى الدراسة العلمية المجرّدة التي أردناها .

ولا يحسبنّ قارىء هذا الكتاب أنّ العرب تفرّدوا بالإنطلاق وراء اللذات الجنسيّة والهيام بها . فإن تاريخ اليونان والرومان ، وفرنسة وانكلترة ، يقدّم لنا أمثلة كثيرة عن الانطلاق نفسه ، الأمر الذي يدلّ أن الطبيعة البشرية — إلى حد كبير — واحدة ، مهما اختلف الزمان والمكان .

الحياة الجنسية عند العرب

الجِنسُ في العَصْرِ الجَاهلي

كانت الصحراء الواسعة الممتدة أحسن بيئة لإثارة الغرائز في نفوس العرب . ذلك أن العزلة التي فرضتها عليهم دفعتهم إلى الاهتمام بما يحيط بهم . كانوا يعيشون بالفطرة ، ويخضعون للغريزة : يتخاصمون ويرضون ، ويرحلون ويحلّون . وهم بين ذلك كله ملتصقون أشدّ الالتصاق بشيئين لا يكادان يفارقانهم : الأول الابل والخيـــل ، والثاني المرأة . فكانوا يجدون في إبلهم وخيلهم منطَلَقاً لغرائزهم الوحشية في الغزو والحرب والصيد . ويجــدون في المرأة متنفّساً لغرائزهم الجنسية . كانوا دائماً يرافقون الإبـــل ويرافقون النساء . حتى في حربهم وغزواتهم كانوا يجعلون النساء معهم في أعقابهم . ثم كانوا يصفون في شعرهم الإبـل ويتغنّون بالمرأة . وفي أحاديثهم كانوا يروون مغامراتهم وبطولاتهم في الغزو والقتال والحب . وكانت المرأة تخالط الرجال وتحادثهم ، متبرجّة سافرة . وكان تبرّج المرأة الجاهلية واضحاً حتى أمر القرآن فيما بعد النساء المسلمات بأن لا يتبرجن تبرّج الجاهلية الأولى .

وقد بلغ هـذا الالتصاقُ بين الجاهليّ والمرأة والإبل حـدّاً دفعه إلى أن يربط أحاسيسه بأحاسيس الإبـل نفسها ، وأن يمنحها شعوراً مثل شعوره . فالمنخّل الشاعر كان يحب فتاته ، تلك الفتاة التي دخـل عليها الخِـدْر في يوم مطير ، فرآها كاعبـاً حسناء تَرْفُـلُ بالدِمَـقْس وبالحرير . وفتاتُـه هذه كانت تحبه أيضاً ، ثم يفيض حبّها إلى ما حولها ، وإذا ببعيره يعشق ناقتها . فيقصّ ذلك كله في شعره فيقول :

ولقد دخلتُ على الفتاةِ الخِـدْرَ في اليومِ المطيرِ
الـكاعبِ الحسناءِ ترفُـــلُ بالدمقسِ وبالحريرِ
فدفعتُها فتدافَـعَتْ مَشْيَ القَطاةِ إلى الغـــديرِ
وأُحبّهـــا ، وتُحبني ، ويحبُّ ناقتها بعيري .

كانت الغرائز الجنسيّة قوية متأججة في نفوس العرب ، لذلك كان انطلاقهم في جاهليتهم وراء اللـذة الجنسيّة بعيداً ، وكان انغماسهم في اللذات شديداً ، بحكم الغريزة ، والصحراء . ورغم أن الكثير من أخبارهم الجنسيّة لم يصل إلينا ، فإن لدينا دلائل وافرة على ذلك .

كان السفور شائعاً . تبرز المرأة للرجال وتتحدث إليهم ، وتجتمع بهم . وكان الاتصال الجنسي ، بين الرجـــل والمرأة ، يحدث بطرق مختلفات ، يحدث أوّلاً بالنكاح الشرعي فيخطب الرجـــل امرأة من أهلها ، فتكون زوجة له لقاء مهر معلوم . وكان المهرُ يختلف حسب القبائل ، كانت كندة لا تزوّج بناتها بأقل من مئة من الإبل ، وربما أمهرت الواحد ألفاً . فصارت مهور كندة مثلاً في الغلاء (ثمار القلوب١٢٣)

لكن هـــذا النكاح الشرعي لم يمنع العرب من اللجوء إلى طرق أخرى فيها كثير من الحرية .

وقد لخصت عائشة رضي الله عنها ، هذه الأنواع ، فقالت :

كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء :

١ ـ فنكاحٌ منها نكاحُ الناس اليومَ ، يخطبُ الرجلُ إلى الرجل وليّته أو ابنته ، فيُصْدِقُـها ثم ينكحها .

٢ ـ ونكاح آخر كان الرجـــلُ يقولُ لامرأته إذا طَهَرَت من طَـمْثِها : ارسلي إلى فُلان فاستبْضِعي منـــه ، ويَعْتزِلُها زوجُها حتى يتبيّن حملُها ، فاذا تبيّن أصابها إذا أحبّ ، وإنما يفعل ذلك رغبةً في نجابة الولد . ويسمّى هذا نكاح الاستبضاع .

٣ ـ ونكاحٌ آخر : يجتمعُ الرّهْط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلُّـهم يُصيبُها . فاذا حملتْ ووضعت ومرّ عليها ليالي أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجلٌ منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها . تقول لهم : قد عرفتم ما كان من أمركم وقد ولدتُ ، فهو ابنُك يا فلان . تُسَمّي مَنْ أَحبّت باسمه ، فيُلحِقُ بـه ولدَها لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل .

٤ ـ ونكاح رابعٌ : يجتمعُ ناس كثير ، فيدخلون على المرأة ، لا تمتنع ممن جاءها ، وهُنّ البغايا ينصبْنَ على أبوابهنّ رايات تكونُ عَلَماً . فمن أرادهنّ دخـل عليهنّ . فاذا حملت إحداهُنّ ووضعت

جُـمعوا لها ، ودَعوْا لها القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون . فالتاط به ، ودُعي ابنه لا يمتنع من ذلك .

فلما بُعث محمد بالحق هدم نكاح الجاهلية كلّه إلا نكاح الناس اليوم . (رواه البخاري وأبو داود) .

وإلى هذا نضيف طرقاً أخرى .

فقد كانت المرأة تتخذ أحياناً كثيرة خِدْناً فينكحها سراً ، وتبقى له . فما دام الستر موجوداً فلا بأس بالنكاح . وهذا النوع من الاتصال كان يسمّى نكاح الخِـدْن .

وقـد كان الرجلان يتفقان أحياناً أن يتبادلا زوجتيْهما ، فيقول أحدُهما : خذ زوجتي وأعطني زوجتك . فينزل كل رجل عن امرأته للآخر ، وهذا نكاح البَدَل .

وقد يذلّـلون عَقَبَـة المهْرِ ، فيزوّج الرجلُ ابنتَه لآخر ، على أن يزوّجه ابنته بلا صِداق ، وهذا نكاح الشِّغار .

وقد يتزوّج بعضُهم ابنَته ، ومن هؤلاء حاجِـبُ بنُ زُرَارة سيد بني تميم ، فقد تزوّج ابنته وأولدها . (قرطبي ١٠٤/٥) .

وكانوا لا يجدون حَرَجاً في الجمع بين الأختيْن في وقت واحـــد معاً ، كما فعل أبو أُحيْحة سعيد بن عاصم .

وقـــد يخلف الابنُ على امرأة أبيه برضاها إذا طـلّقها أو مات عنها ، وهو نِـكاح المَقْت ، وهذا كان شائعاً . وقد رُوى أن ثلاثـة من بني قيس بن ثعلبة تناوبوا على امرأة أبيهم فُكيْهَة ، واحداً بعد

واحـــــد . وقد ورد في شعر أوس بن حَجَر ما يؤيد ذلك . وخلف عمرو بن أمية على امرأة أبيـه ، وكذلك فعـل صفوان بن أمية . (قرطبي ٥/١٠٤) .

وكان النساء يُظهرن ما يَقْبُحُ إظهارُه ، حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخِلِّها ، فينفرد خِلُّها بما فوق الإزار إلى الأعلى ، وينفرد زوجها بما دون الازار إلى الأسفل . وربما سأل أحدهما صاحبه البدل . (قرطبي ١٤/١٧٩ ــ ١٨٠) .

وكان بعض النساء سريعات في قبول النكاح ، اشتهرتْ منهن أمُ خارجة . فقيل في المثل : أسرعُ من نكاح أمّ خارجة ، فما يكاد يعرض عليها الرجلُ النكاحَ حتى ترضى ، ويقول المبرّد إنها ولدت في نيّف وعشرين حيّاً من أحياء العرب ، من آباء متفرّقين . وكانت تتزوّج على أن يكون أمرها إليها . وكانت علامة رضاها عن الزوج أن تصنع له طعاماً كلّما تصبح . (ثمار القلوب ٣١٢) .

***

وإلى جانب هذا كان الزنا منتشراً . والأخبار على ذلك كثيرة . ومنها ما يشير إلى أنهم كانوا يزنون بابنتهم أو مولاتهم أو جاراتهم . ثم عُرف البغاء ، أدخلته الارستوقراطية القرشية . فكان أبو جهـل والهبّار بن الأسود ، أوّل منْ نشره . وردّدت المصادر ذكر قحبة عُكاظ التي كانت تؤجر نفسها لكل منْ طلبها . فإذا لذّها الرجـــل أعادت إليه أجره وسألته العوْد إليها . كما ذكرت الأمثال ظُلمة الهـذلية التي

زنتْ أربعين عاماً ، وقادتْ أربعين عاماً . فلما عجزت عن الزنا والقود ، اتخذت تيْساً وعنْزاً . فكانت تُنْزِي التيْس على العَنز وترقبهما . فقيل لها : لماذا تفعلين ذلك ؟ قالت : حتى أسمع أنفاس النكاح .

وكانت البغايا ينصبنَ على أبوابهن رايات تكون َعلماً ، فمن أرادهنّ دخل عليهن . وكنّ يسمين صاحبات الرايات . وقد سمّى ابن الكلبيّ في كتابه « المثالب » بعضهن . وقد تكون هذه الرايات حُمْراً .

وذهب بعض العلماء المُحْدثين إلى أن هؤلاء البغـايا لم يكنّ من حرائر النساء ، بل من الفتيات الإماء .

وكان أولاد الزنا أو أولاد البغايا معروفين ، وكانوا يعيّرون بذلك .

***

وُعرف السحاق أيضاً . ظهر أوّل ما ظهر من الحيرة حيث الترف في قصور المناذرة . فقد أحبّت هندُ بنت النعمان زرقاء اليمامة وساحقتها . فكانت أول امرأةٍ هويت امرأةً في العـــرب . ثم انتشر السحاق بين النساء .

***

وإلى جانب البغاء والسحاق ُعرف التخنّث . وقـــد اتّهم بـه أبو جهل . فذكر منْ ترجم له أنه كان مبتلىً بهـذا الداء العُضال . وكذلك كان الحكم بن أبي العاص .

ويبدو أن اللواط كان معروفاً ، وان كان ما لدينا من أخبار عنه قليلة . وقد رووا أن أبا سُفيان كان يعتمد استه على حجر أو عصا ، فيحكّها ويقول : لا والله ، مـا يقربُك أحد . ولمـا كان يوم بدر قال عُتبة بن ربيعة لأبي سفيان : يا مُصَفِّر استه . وكان أبو سفيان نُسب إلى التخنّث والتأنّـث ، وبذلك أشار إليه بقوله : يا مُصَفِّر استه .

***

ويظهر أن بعض العرب كان يمارس العمل الجنسيّ مع البهائم . وكانت فَزارة تُعَيَّرُ بإتيان الإبل ، حتى قال الشاعر :

لا تأمَنَنّ فَزارياً خلوتَ بـــه
على قـلوصك ، واكتبْها بأسيارِ

وقد جاء في الأمثال : « أشبقُ من جُمّالة » ، وهو رجل من بني قيس بن ثعلبة كان يأتي ناقته . (مجمع الأمثال ٣٨٧/١) .

***

وكانت أعضاء المرأة الخفيّة محطّ الأنظـــار ، حتى كانت المرأة العارية التي تطوف في البيت الحرام ـ وكان النساء يطفْنَ عرايا ـ تنشد في طوافها الشعر بأنها لا تسمح لأحـد أن ينظر إلى فَرْجها . ولما طَـلَّق عبدُ الله بن جدْعان زوجته ضُباعة شرط عليها أن تطوف عُرْيانةً في البيتِ الحرام إذا تزوّجت غيره . فلما تزوجتْ فعلت ذلك . فحدّث المطّلب بن أبي وَدَاعة قال : لقد أبصرتُها وهي عُريانة تطوف بالبيت ، وإنّي لغُلام أتبعها إذا أدبرتْ ، واستقبلُها إذا أقبلتْ ، فما

رأيتُ شيئاً مما خلق الله أحسن منها ، واضعة يدهـــا على فرجهـا وهي تقول :

اليومَ يبــدو نصفُه أو كُلّه
وما بدا منـــه فما أحلّه

كم ناظرٍ فيـــه فما أبلّه
أجْثَمُ مثـــل القعْبِ بادٍ ظِلُّهُ

فلو لم يكن الرجال يحدّقون بعيونهم إلى أعضاء المرأة الخفيّة لما أنشدت هذا الشعر . والعجيب أنها لا تُحلّ النظر إلى فرْجها ، وفي الوقت نفسه تشيد بمحاسنه وتصفُه وصفاً يُغري به .

وكانت النساء لا يَخْجَلْنَ من وصف أعضائهن الخفيّـة مجاهرة . روى صاحب « الحماسة البصرية » أن امرأة كانت تنظر إلى فرجها ، فترقّصه وتقول :

أجْثَمُ مَطْليٌّ بزعفران
تراه عنـــد الشمّ والتداني
مُبَرْطِماً بَرْطَمَةَ الغَضْبَانِ
أدْرَدَ ، لا يضحكُ عن أسنانِ
كأنّ فيـــه فَلَقَ الرُّمان
أو لهباً كَلَهَبِ النـــيران

وما كان الشعراء يتورّعون عن وصف فرج المرأة إذا رأوه . قال أحدهم :

قامت تَمَطّى والقميصُ مُنْخَرِقْ
فصادفَ الخَرْق مكاناً قد حُلِقْ
كأنه قَعْبُ نُضار مُنْفَلِقْ

فشبّه فرجها بَقدَح ضخم ذهبي كالنضار . (انظر شرح الحماسة ٤ / ١٨٥٥) .

* * *

وثمة أمور أخرى تتعلّقَ بالحياة الجنسيّة في الجاهلية . فقد كان مصّ البظر شائعاً . ويبدو أن بعض الأمهات كنّ يَدْفَعْنَ أولادَهن إلى فعل ذلك بهن ، ابتغاء اللذة . فالبظراءُ تجد لذة في ذلك . لذلك نجد مَنْ كان يُعيّر بمصّ البَظْر ، فقيل : يا ماصَّ بظْر أمّه . وصار ذلك فيما بعد ذمّاً وشتماً .

* * *

ورغم هذه الأخبار التي سقناها عن الحياة الجنسية عند العرب في الجاهلية فإن ما غاب عنا كثير . ولا بدّ أن نذكر أنّ هذه الرغبة الجنسية ظهرت في شعر بعض شعراء الجاهلية وفي مغامراتهم . كامرىء القيس الذي أتى العذارى يوم دارة جُلجل ، وهنّ عاريات يَسْتَحمِمْن ، فسرق ثيابهن ، وأقسم لا يُعطي واحدة ثيابها حتى تخرج أمامه عارية فتمشي مقبلة مدبرة ، ليمتع نفسه ويشبع غرائزه في النظر إلى عُرْيها . ولم تذكر المصادر القديمة أن هذا الحادث نتج عنه أذى لامرىء القيس،

بل مرّ بسلام . وقد ذكر في معلقته أنه طرق صاحبته وهي تُرضع طفلها ، ولم يحفل بقداسة الأمومة في سبيل شهوته . فـكانت تميل إلى طفلها بنصفها الأعلى ترضعه ، ونصفها الأسفل تحته لم « يحوّل » .

وقد نسبوا إلى امرىء القيس قوله عن ألذ لذة في الدنيا عندما سُئل عنها : أكل اللحم ، وركب اللحم ، وإدخال اللحم في اللحم . فإذا صحّ ذلك ، يكون عبّر عن اللذة الجنسية في الفقرة الأخيرة من كلامه ويكون جعلها من لذائذ الدنيا .

وأثّرت الحضارة في النابغة الذبياني لتردّده على الحيرة . فيقولون إنه تخنّث في شعره . وآية هذا التخنث وصفه المتجرّدة الذي برع فيه ، وخاصة في وصف حِـرِها الكبير الذي يملأ اليد ، ويتأجج بالحرارة .

وكان الأعشى يُغامر ويجري وراء النساء في الحيّ ، فيلذّ بهن غير حافل بأزواجهن .

وقد أشار ابن سلاّم في طبقات الشعراء إلى هؤلاء فقال : « ومن شعراء الجاهلية من كان يتعهّر ولا يُبقي على نفسه ولا يتستر . » وذكر منهم امرأ القيس والأعشى .

وصف الشعراء المرأة كما اشتهوا أن يكون جمال المرأة . وهو جمال اللحم قبل كلّ شيء . اللحم الذي يُمسْك باليـد فيثير الغرائز ويُطفيء الشهوات . وذهب بعض الشعراء فوصفوا جسم المـــرأة وأعضاءها الخفية أوصافاً مادية شهوانية . ذلك لأن المرأة كانت الوسيلة

الأولى إلى اللذات الجنسية . وقد جعلها طرَفة المثل الأعلى الذي يهدف إليه في حياته مع الشراب .

وأغلب الظن أنّ ما وصل إلينا من الشعر الجاهلي الذي يصوّر الحب الجنسي وولوع العرب به قليل . فليس يُعقل بعد الأمثلة التي سقناها أن يكون امرؤ القيس والنابغة وطرفة والأعشى وحدهم عُنوا بذكر تلك الرغبة الجنسية المتأججة في نفوس العرب . فلا بُدّ أن أن يكون هناك شعراء آخرون لم يصل إلينا شعرهم في هذا السبيل .

وثمة دليل قوي يؤيد ما ذهبنا إليه من عناية العرب بالأمور الجنسية وشغفهم بها هو وضعهم مئة لفظ أو أكثر للنكاح[1] ، وعدداً كبيراً من الألفاظ اسماً لعضو المرأة الخفيّ ، ومثلها لعضو الرجل . فوفرة هذه الألفاظ تدلّ على الحاجة الماسّة إليها ، وعلى كثرة استعمالها . وتدل على ولوع العرب بالنكاح وافتنانهم به وتعظيمهم له . فوفرة الاسم تدل على شرف المسمّى . وفي ذلك كله إشارة مادية واضحة إلى انطلاقهم نحو اللذات الجنسية ، وحبهم المرأة معطية هذه اللذات .

---

(١) قلنا هذا في الطبعة الأولى ، ثم عثرنا على مخطوطة كتاب « النكاح في اللغة » لابن القطّاع الصقلي ، فإذا به يذكر فيها ألفاً وثلاثة وثمانين اسماً للنكاح – انظر فصل اللغة الجنسية .

الإسـلامُ وَالجِـنس

لم يبدّل الاسلام شيئاً من حب العرب الجنس ، أو من ولوعهم به ، بل ساعد عليه ، وسهّل السُبُل إليه . ذلـك أنه نظّمه ، وأدخله في قواعد الشريعة ، وحاول تهذيب نفوس العرب ، والحدّ من الغلوّ في الهيمان وراء اللذة الجنسية .

نظر القرآن إلى المرأة على أنها رأس الشهوات : (زُيّن إلى الناس حُبُّ الشهواتِ من النساءِ والبنين ...) . (آل عمران ١٤) ولكي يتمتّع المسلمون بهذه الشهوة أطلق القرآن لهم النكاح بأربع نساء (فانْكِحوا ما طابَ من النساء مَثْنى وثُلاثَ ورُباع ..) (النساء ٣) . وجعل ذلَك بشروط . أولها تادية المهر لكل زوجة ، وأن يوجد العدلُ بينهنّ .

ومعنى العدل يوضحه ما ذكره عمرو بن عبيد . فقد سُئل في المسجد الحرام عن معنى قوله تعالى (ولَنْ تستَطيعوا أنْ تَعْدِلوا بين النساءِ ولو حرصتم) (النساء ١٢٩) ، فقال : ذلَك في محبة القلوب التي

لا يستطيعها العبد ، ولم يكلّفها . فأما العدلُ بينهنّ في القسمة من النفس والكسوة والنفقة فهو مطيق لذلَك . ذكر ذلك المرتضى في أماليه (١/١٧٠) . وقال ابن عباس : لا يستطيع أن يعدل بينهنّ في الشهوة ولو حرص .

لذلَك كان العدل بين النساء أمراً يكاد يكون مستحيلاً ، حتى رسول الله ﷺ غلب على قلبه حب عائشة دون سائر أزواجه . لذلَك جاء في القرآن (فإن خِفْتُم أن لا تعدِلوا فواحدةٌ) (سورة النساء ٣) . وهذا إيماء للناس إن لا يتزوجوا أربع نساء معاً في آن واحد .

* * *

وأجاز القرآن المتعة بالنساء ، المحدّدة بوقت، باتفاق الرجل والمرأة ، لقاء أجر . (فما استَمتَعتم به منهنّ فآتوهن فريضة) (النساء الآية ٢٤). وكان ابن عباس وأُبَيٌّ بن كعب يقرءآن هذه الآية كما يلي (فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهنَّ أجورهن فريضة) . وكان الأجر على الأغلب ضئيلاً . ذكر جابر بن عبد الله الصحابي قال : كنا نَستَمْتِعُ بالقبضة من التمر والدقيق لياليَ ، على عهد رسول الله وأبي بكر .

وروى سبرة قال : رأيتُ رسول الله قائماً بين الركن والباب وهو يقولُ : يا أيّها الناس ، إني قد كنتُ أذنتُ لكم في الاستمتاع من النساء وإن الله قد حرّم ذلك إلى يوم القيامة (رواه مسلم ، وأبو داود ، والنسائي) .

وقد أُبطل عمر العمل بالمتعة . قال : متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما . عنى مُتعة النساء ومُتعة الحج (تفسير القرطبي ٣٩٢/٢) . والسبب في ذلك ، على قول ابن الكلبي: أن بعض العرب ، استمتعوا بنساءٍ فولدْنَ لهم أولاداً فجحدوا الأولاد». وهذا أمر خطير يؤدي إلى اختلاط الأنساب ، وتفكّكك المجتمع . فكان منعُ عمر ضرورةً اجتماعية ، حتى قال سعيد بن المسيب « رحم الله عمر ، لو لم يَنْه عن المتعة لاتخذها الناس ذريعة مُدلّسة إلى الزنا ». (النهاية لابن الأثير ١٣٠/٢) .

ورغم منع عمر ، ظلّ بعض الصحابة يقولون بإباحتها ، مطلقاً أو للضرورة ، وأفتى بذلك ابن عباس . وسارت فتياه في الآفاق حتى دخلت في الشعر :

قد قلتُ للشيخِ لما طال مجلسه
يا صاحِ ، هَلْ لك في فُتْيا ابن عبّاسِ
في بَضّةٍ رَخْصةِ الأطرافِ ناعمةٍ
تكونُ مَثْواك حتى مَرْجِع الناسِ .

(تفسير القرطبي ١٣٣/٥)

وقد ذُكر أن ابن عباس تنصّل من فتواه . فقد روى عن عطاء : سمعتُ ابن عباس يقول : ما كانت المتعة إلا رحمة رحم الله بها أمة محمد ﷺ ، فلولا نهيه - أي الرسول - عنها ما احتاج إلى الزنا أحد

إلا شفيّ – أي الا قليل – قال عطاء : لكأني أسمع قوله الاّ شفيّ . قال أبو منصور : وهذا الحديث يدل على أن ابن عباس علم أن النبي ﷺ نهى عن المتعة فرجع إلى تحريمها بعد ما كان باح بإحلالها (اللسان ، مادة شفا) ، ومع ذلك سار بعضُ التابعين على الترخيص في المتعة ، رغم أن جمهور الصحابة والتابعين رأوا أنها حرام . ومن هؤلاء التابعين الذين رخصوا في المتعة عبد الملك بن جُرَيْج ، وكان أحد الأعلام الثقات ، وفقيه أهل مكة في زمانه ، فقد تزوج نحواً من تسعين امرأة نكاح متعة .

وكذلك سار أئمة أهل البيت على الترخيص فيها ، وما زالت المتعة شائعة بين الشيعة اليوم .

لا شك أن المتعة الحلال ، باتفاق الرجل والمرأة ، وضمن شروط تحدّد الأجر والمدّة ومصير الأولاد ، تحل كثيراً من المشكلات ، وتُيَسّر الكثير على الرجال ، وتُخلّصهم من الكثير من العُسْر . وقد أدّت عملها في أيام الرسول عندما رُخّص بها للمضطر : للحاجة إليها في الغزو أو لعدم استطاعة الزواج في الحضَر ، لأن قيودها أخفّ من قيود الزواج ، فهي تكون إلى أجلٍ مسمّى ، وهي لا توجبُ الميراث ، ولم يكن منعُها من قبل عمر إلاّ لضرورةٍ اجتماعية اقتضاها فساد الأخلاق .

والاضطراب في أمر المتعة يفسّره ما قاله القرطبي : « وقد كان للمتعة في التحليل والتحريم أحوال . فمن ذلك أنها كانت مباحة ، ثم

حرّمها رسولُ الله زمن خيْبر ، ثم حللها في غزاة الفتح ، ثم حرّمها بعد » (القرطبي ١٠٦/١٢) .

* * *

وأطلق الإسلام التمتع بملك اليمين من الإماء والجواري (ومَنْ لم يستطع منكم طَـوْلاً أن ينكِحَ المُحْصَنَات ِ المؤمنات ِ فما ملكت أيمانكم) (النساء ، ٢٥) . وقد اعتبر القرآن نكاح الإماء تخفيفاً عن المسلمين (يُريد الله أن يخفّفَ عنكم ، وخُلق الإنسانُ ضعيفاً) (النساء ، ٢٨) .

وقد كان في هذه القواعد كلّها حكمة بالغة ، لأنها كانت إجابة لرغبات العرب أنفسهم ، وما يتأجّجُ فيها من شهوات ٍ مُحرقات ، ومن حبّ ٍ للمرأة ، ولكن ضمن قواعد وحدود .

* * *

وإلى جانب هذه التشريعات ، جاء الإسلام بقواعد تضمن للحياة الجنسية أن تبقى سليمةً نظيفة ، فمنع جميع الطرق التي توصل إلى اللذة بالحرام ، أو بأسلوب دنيء . وأبطل جميع ما كانت عليه الجاهلية من ذلك .

فانكر أوّلاً الزنا إنكاراً شديداً وحَرّمه . وعندما جاء إليه النساء ليُبايعْنَه ، طلب أن يُبايعنه على أن لا يُشركن بالله ولا يسرقْنَ ولا يزْنين ، ولا يقتُلْن أولادهنّ ، ولا يأتِينَ ببُهْتان يَفْتَرينَه بين أيديهنّ وأرجلهن ـ أي لا يُلحقن بأزواجهن غير أولادهم . (انظر

سورة الممتحنة ، الآية ١٢) . ومـا ورد في إنـكار الزنا من أقوال الرسول كثير جداً .

وقد نصّ القرآنُ على عقوبة الزاني والزانية : (الزانية والزاني فاجلدوا كلَّ واحدٍ منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفةٌ في دين الله إنْ كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولْيَشْهَدْ عذابَـهُما طائفةٌ من المؤمنين) (سورة النور ، الآية ٢) . والجَلْدُ يكون لغـير المتزوّج المُحْصَن ، رجلاً كان أَو امرأة . ويكون بالسَوْط ، ويكون الضربُ على الظَهْـر . أما المُحْصَنُ من الرجال والنساء فعليه الرَجْمُ . (انظر تفصيل ذلك في تفسير القرطبي ٨٢/٥ وما بعدها ـ و ١٥٩/١٢ ـ ١٦١) .

ولكنّ هذه العقوبة لا تنفّذُ إلا بعد ثبوتها . ولا تثبت إلاّ إذا شهد أربعةُ شهداء ذكور أنهم رأوا العمل الجنسيّ كاملاً . وهذا شرط صعب جداً . ولا أدلّ على هذه الصعوبة من قصة رُويتْ عن أعرابي استشهدوه على رجل وامرأة زَنَـيا ، فقيل له : أتشهد أنك رأيتـه يُدخلُه ويُخرِجُه كالمِرْوَدِ في المكحلة ؟ فقال : والله ما كنتُ أرى هذا لو كنتُ في جلدة أستها .

فإذا لم يثبت الزنا ، جُلدَ الذين زعموه : (والذين يرمون المُحْصَنات ثم لم يأتوا بأربعة شهدآء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، واولئك هم الفاسقون) (سورة النور،الآية ٤) ، وعندما شهد على المغيرة بن شُعبة ثلاثة شهود ، ولم يصرّح الرابع كما صرّحوا ، جَلَدَ عمرُ ابن الخطّاب الثلاثة ، ولم يثبت الزنا .

وكانت الحكمة من هذا التصعيب أن لا يفتضح رجلٌ ولا امرأة . ولكنّ هذا التصعيب نفسه صار فيما بعد ، عندما ضَعُف سلطان الدين في النفوس ، وسيلةً للانطلاق نحو التلذّذ بالمرأة والاستمتاع بها على غير ما نصّ عليه القرآن .

* * *

وَحرَّم القرآن الكثير من عادات الجاهلية الجنسية وأعطى المرأة مكانة وقدراً ما كانت تعرفها . حرّم أن يتزوج الإبنُ امرأةَ أبيه ، أو أمَّه ، أو بنته ، أو أخته ، أو عمته ، أو خالته ، أو بنت أخيه ، وأخته ، أو أمّه التي أرضعته ، أو أخته من الرضاعة ، أو ربيبته (بنت امرأته) ، وحرم أن يجمع الرجل بين الأختين معاً ، ومنع النساء من اتخاذ الأخدان ، ومن السفاح . ومنع نكاح الشغار ، والبدل ، والمقت وغير ذلك . وحرص الإسلام كثيراً على أن تكون المرأة غير مبتذلة يتداولُها الرجال مُتْعةً رخيصة (انظر سورة النساء الآية ٢١). وكذلك منع إكراه الفتيات على البغاء تكسّباً بعرضهنّ .

* * *

ومنع القرآنُ الزواجَ بالبغايا والزانيات . قيل إن أهل الصُفّة ـ وكانوا قوماً من المهاجرين ـ لم يكن لهم في المدينة مساكن ولا عشائر ، فنزلوا صُفَّة المسجد ، وكانوا اربعمائة يلتمسون الرزق بالنهار ويأوون إلى الصفّة بالليل . وكان بالمدينة بغايا متعالنات بالفجور ، مخاصيب

بالكسوة والطعام . فَـهَمَّ أهلُ الصُفّة أن يتزوجوهنّ فيأووا إلى مساكنهن ، ويأكلوا من طعامهن .. فنزلت الآية (الزاني لا ينكِحُ إلاّ زانية) (سورة النور الآية ٣) ، (انظر تفسير القرطبي ١٢/١٦٨)

ولعل ذلك كان في أول الاسلام . ثم نسخت هذه الآية بقوله تعالى (وأنْـكِحوا الأيامى منكم) . (تفسير القرطبي ١٢/١٦٩) .

* * *

وكذلك مُنع اللواط . ولدينا أحاديث صحيحة عن الرسول فيها لعنٌ لمن عمل آل لوط . وقد شدّد الفقهاء فيما بعد على وجوب تعزير الفاعل أو إقامة الحدّ عليه أو جلده . وروى أبو داود وابن ماجـه والترمذي والنسائي والدارقطني عن الرسول قوله : من وجدتموه يعمل عمل آل لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول (تفسير القرطبي ٧ / ٢٤٤) . وروي أن أبا بكر حرّق رجلاً بالنار يسمّى الفُجاءة حين عَمِل عَمَلَ آل لوط . وهو رأي علي بن أبي طالب . ثم أحرقهم ابن الزبير في زمانه ، ثم أحرقهم هشام بن الوليد ، ثم أحرقهم خالد القسري في العـراق . (تفسير القرطبي ٧/٢٤٤) .

* * *

ومنع الإسلام إتيان البهائم ، وكان موجوداً في الجاهلية . وقـد روى ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : من وقع على بهيمة فاقتلوه . (قرطبي ٧/٢٤٥) .

* * *

وكذلك أراد الإسلام أن تكون النساء بعيدات عن التبذّل . فمنع أن يُظهِرْنَ زينتَهُنّ إلى غير أزواجهنّ . وحذّرهن أن يلبَسْنَ الثياب الرِّقاق التي تصف أجسامهن . ورد في الحديث « نساء كاسيات عاريات ، مائلات مُميلات ، رؤوسهن مثل اسنمة البُخْت ، لا يدخلْنَ الجنَة ولا يجدْن ريحها » . ومنعهن من التبرّج كما كان النساء يتبرّجْنَ في الجاهلية الأولى (الأحزاب ، ٣٣) .

وروي أن نسوةً من بني تميم دَخَلْنَ على عائشة عليهنَّ ثيابٌ رِقاق ، فقالت عائشة : « إن كنتُنَّ مؤمناتٍ فليس هذا بلباس المؤمنات ، وإن كنتُنّ غير مؤمنات فتمتّعْنَ به » .

وقال عمر بن الخطاب : ما يمنع المرأةَ المسلمة إذا كان لها حاجة أن تخرج في أطمارها – أي ثيابها البالية – ، أو أطمار جارتها مُسْتخفيةً لا يعلم بها أحد حتى ترجع إلى بيتها .

وقد كان عمر يرمي من وراء ذلك إلى أمريْن . الأول أن لاتختلط الحرائر بالإماء ، وكن يتبرّجْن ، والثاني أن المرأة هي لزوجها وليست للآخرين ، وهي تستطيع أن تُظهر له جميع مفاتنها وأن تلبس له أحسن ما عندها ، ليستمتع بها كيف شاء . (انظر القرطبي ١٤/٢٤٣ ، ٢٤٤) .

* * *

وقد تحدث القرآن والحديث عن كثير من الأمور الجنسيّة بشكل

واضح . فقصّة يوسف ، التي وردت من قبل في التوراة ، مثال للشهوة الجنسية عند المرأة . وقد قصّ القرآن باسلوب معجز كيف همّ يوسف بامرأة العزيز وهمّت به ، لفرط جماله ، وكيف رأتْه النساء فقطّعن أيديهن من حُسنه ، وقلن معاذ الله أن يكون هـذا بشراً . وكيف لحقت به امرأة العزيز بعد أن راودتْه عن نفسه وقدّتْ قميصه من دُبُـر . كل ذلك أمور جنسية انسانية عرضها القرآن بألفاظ حـلوة وأسلوب معجز ، لا فُحش فيه . ذلك لأنها أمور طبيعية يحسّ بها كل مخلوق .

كذلك تحدّث القرآن عن آل لوط ، وكيف كانوا يأتون الفاحشة وما أصابهم من عذاب .

وتحدّث القرآن عن نتيجة الجماع ، بين الرجل والمرأة . وفَصّل كيف تُخلق النطفة من ماء دافق يخرج بين الصلب والترائب ، هـو ماء الرجل وماء المرأة، فأشار إلى اجتماع الحوينات المنوية Spermatozoïdes من الرجل والمرأة ، الذي ينشأ عنه خلق النطفة المتحولة إلى علقة . وذلك قبل أن يكتشف Leeuwenhoek هذا الأمر في أوروبة في القرن السابع عشر .

وقد ورد في سورة البقرة آيات تتصل بالحيـاة الجنسيّة بسبب وثيق ، منها : (ويسئلونك عن المحيض ، قلْ هو أذى ، فاعتزلوا النساء في المحيض ، ولا تقربوهنّ حتى يطهرن ، فإذا تطهّرن فأتوهُنّ

من حيث أمركم الله ، إنّ الله يحبُ التوّابين ويحبُّ المتطهّرين . نساؤكم حَرْثٌ لـكم ، فأْتوا حرثـكم أنّى شئتم . وقدّموا لأنفسكم واتّـقوا الله واعلموا أنـكم ملاقوه ، وبشّر المؤمنين) .

ففي هاتين الآيتين أمور : الأول : نهى عن الاقتراب من النساء بالجماع أثناء الحيض . وقال كثير من العلماء أو أكثرهم أنه يجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج . سأل عبد الله بن سعد الأنصاري رسول الله : ما يحل لي امرأتي وهي حائض ؟ قال : ما فوق الإزار . (رواه أحمد)

وقد أثار الفقهاء ، فيما بعد ، مسألة مَنْ يباشر زوجته كل المباشرة وهي حائض فقالوا : يكون قد أثم ، وعليه الاستغفار والتوبة . وتساءل بعضهم : هل يلزمه كفّارة . فقال بعضهم : نعم ، وعليه أن يتصدّق بدينار أو نصف دينار . فروى أحمد أن رسول الله جعل في الحائض نصاب دينار ، فإن أصابها وقد أدبر الدم عنها ولم تغتسل فنصفُ دينار . وقال آخرون ، ومنهم الشافعي في قوله الجديد : لا شيء عليه من الكفّارة ، بل يستغفر الله ، لأنهم لم يصح عندهم رفـع الحديث المذكور . (تفسير ابن كثير ١/٢٥٩) .

والثاني قوله تعالى : (من حيث أمركم الله) فقد فسّر ابن عباس ذلك بأنه يقول في الفرج ، ولا تعدوه إلى غيره ، فمن فعل شيئاً من ذلك فقد اعتدى . وعلى هذا فقد حرّموا الوطْءَ في الدبر .

والثالث قوله تعالى : (فاتوا حرثكم أنّى شئتم) قال ابن عباس:

أنزلت هذه الآية في أناس من الأنصار أتوا النبيّ فسألوه . فقـال : ائتِها على كل حال ـ أي مُقبلة أو مُدبرة ـ إذا كان في الفـرج . (تفسير ابن كثير ٢٦٠) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن سابط قال : دخلتُ على حفصة بنت عبـد الرحمن بن أبي بكر فقلتُ : إني سائلك عن أمر ، وأنا استحي أن أسالك . قالت : فلا تستح يا ابن أخي . قال : عن إتْيـان النساء في أدبارهن . قالت : حدّثتني أم سلمة أن الأنصار كانوا يَجْبُون النساء ، وكانت اليهود تقول : من أجبى امرأتَه كان ولده أحول . فلما قدم المهاجرون المدينة نكحوا في نساء الأنصار . فجبوهُنّ ، فأبت امرأةٌ أن تطيع زوجها ، وقالت : لن تفعل ذلك حتى آتي رسول الله ﷺ . فدخلتْ على أم سَلَمَة فذكرتْ لها ذلك . فقالت : اجلسي حتى ياتي رسولُ الله . فلما جاء رسول الله استحت الأنصارية أن تسأل رسول الله فخرجت . فسألتْه أم سلمة . فقـال : ادعي الأنصاريّـة . فدعتْها . فتلا عليها هـذه الآية (نساؤكم حَرْثٌ لكم ، فأْتوا حَرْثَكم أنّـى شئتم) صماماً واحداً .

ومعنى هـذا أنـه يجب إتيان المرأة في فرجها فقط ، سواء أتاها الرجل من قُبلها رأساً أو من طريق دُبرها . وأنه لا يجوز إتيانها في الدُبُـر ، لقول الرسول لعمر بن الخطّاب : « أقبـل وأدبر ، واتق الدُبُـرَ والحيضة » .

وقد لخّص القرطبي الحكم في ذلك فقال : إن الوطء يكون في

الفرج ، وهو موضع الحرث ، على أيّ شكلٍ أو وضْع : من خلف وقدّام ، وباركةً ومستلقية ، ومضطجعة . فأما الإتيان في غير الفرج فهو لم يكن مباحاً ، ولا يُباح . وذِكرُ كلمة « الحرث » في الآية يدل على أن الإتْيان في غير الفرْج مُحرّم ، لأن الحرْثَ تشبيه ، لأنه مُزْدَرَع الذريّة . والفرج هو مكان الزرع للنسل ، وهو كالأرض ، والنطفة كالبذر ، والولد كالنبات . (قرطبي ٣/٩٣) .

وثمّة خبر آخر يتعلق بهذه الآية ويفصل بعض وجوه الجماع في صدر الإسلام . روى ابن عباس قال : ان هـــذا الحيّ من الأنصار – وهم أهل وثن – كانوا مع هذا الحيّ من يهود – وهم أهل كتاب . وكانوا يرون فضلاً عليهم في العلم . فكانوا يقتدون كثيراً من فعلهم . وكان من أمر أهل الكتاب – أي اليهود – أنهم لا يأتون النساء إلاّ على حَرْف – أي على جانبهن – وذلك اسْتَرُ ما تكون المرأة . فكان هذا الحيّ من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم . وكان هذا الحيّ من قريش يشرحون النساء (أي يأتونهن وهنّ مستلقيات على ظهورهن) شَرْحاً مُنكراً ، ويتلذّذون بهن مُقبلات ومُدبرات ومُستلقيات . فلما قدم المهاجرون المدينة تزوّج رجلٌ منهم امرأة من الأنصار . فذهب يصنع بها ذلك فأنكرْته عليه ، وقالت : إنما كنا نؤتىٰ على حَرْف . فاصنع ذلك ، وإلا فاجْتَنِبْني . فسرى خبرهما . فبلغ رسول الله ﷺ ، فأنزل الله (نساؤكم حَـــرْث لكم ، فأْتوا حَرْثكم أنّىٰ شئتم) أي مُقبلات ومُدبرات ومُستلقيات . يعني بذلك موضع الولد (تفسير ابن كثير ٢٣١) .

وروى عكرمة قال : جاء رجل إلى ابن عبّاس وقال : كنتُ آتي أهلي في دُبُـرها . وسمعتُ قول الله (نساؤكم حرثٌ لكم ، فأْتوا حرثكم أنّى شئتُم) فظننتُ أن ذلك لي حلال . فقال : يا لُكَع ، إنما قوله (فأْتوا حرثكم ...) أي قائمة وقاعدة ومُقبلة ومُدبرة في قُبُلها (ولا تَعْدُوا ذلك) إلى غيره . (تفسير ابن كثير ٢٦٢/١) .

وقد نُسب إلى ابن عمر أنه أحلّ إتيان النساء في أدبارهن ، ولم يصح ذلك (تفسير ابن كثير ٢٦٢/١) . قال ابن كثير : وقد روينا عن ابن عمر خلاف ذلك صريحاً ، وأنه لا يُباح ولا يحلّ .

وكذلك نُسب مثل ذلك إلى الإمام مالك . قال ابن كثير : وأكثر الناس يُنكر أن يصحّ ذلك عن الإمام مالك رحمه الله . فقد وردت الأحاديث المروية من طرق متعدّدة بالزجر عن فعله وتعاطيه . منها ما رواه الإمام أحمد أن رسول الله نهى أن يأتي الرجل امرأتَه في دبرها . ومنها قوله عليه السلام : استحيوا ، إن الله لا يستحيي من الحق . « لا تأتوا النساء في أعجازهن » . رواه النسائي ، وابن ماجه .

* * *

ومما يلحق بهذا تفسير قوله تعالى (وقدّموا لأنفسكم) ، بعد قوله (فأتوا حرثكم أنّى شئتم) .

فقد اختلف المفسّرون في معناها . فقال القرطبي : أي قدّموا ما ينفعكم غداً . وسرد أقوالاً أُخرى منها : قدّموا لأنفسكم الطاعة

والعمل الصالح ، ومنها أن التقديم هو ابتغاء الولد والنسل ، ومنها أن معناه التزوج بالعفائف ، وقال ابن عباس وعطاء : وقدموا ذكر الله عند الجماع . (القرطبي ٩٦/٣) .

ونعتقد أن جميع هـذه التفسيرات لا تتصل بالآية . فالآية تبيّن أوضاع الجماع مع المرأة ومحلّ الجماع . والجماع حالة لهو وأُنس ولذة ، فلا علاقة لهذا بالطاعة والعمل الصالح ، أو ذكر الله عند الجماع .. بل ان الجماع الحـلال نفسه طاعةٌ وعملٌ صالح ، ولا محلّ لذكر الله عند الجماع ، إلاّ أن يتلفظ الرجل بالبسملة قبل الجماع .

والذي نراه أن معنى : (وقدّموا لأنفسكم) هو أن تقدّموا للنكاح بمقدّمات تهيء المرأة له . من تقبيل ومُداعبة ومغازلة . يدل على ذلك ما قاله رسول الله « لاَ يَقَعنَّ أَحدُكم على امرأته كما تقعُ البهيمةُ على البهيمة ، وليكنْ بينهما رسول . قيل : وما هو يا رسول الله ؟ قال : القُبْلَةُ والكلام » . وعدّ رسول الله من العجز في الرجل أن يُقارب المرأة فيُصيبَها قبل أن يُحادثها ويؤآنسها ، فيقضي حاجته منها قبـل أن تقضي حاجتها منه .

وهناك أقوال كثيرة للصحابة في هــذا الباب . وقد روى أن الحسين بن عليّ قـال : إذا خلوتم بالنساء فداعبوهنّ ، ولا تكونوا كالفحل الذي يعلو بغتة .

* * *

ومن الأمور التي فسّرها الرسول : ما لا يجب الحدّ فيه على الرجل إذا تمتع بامرأة مما لا يدخل في الحرام .

ذكر القرطبي عند تفسيره قوله تعالى : (إن الحسناتِ يُذهبْن السيّئآت) أنها نزلت في رجل من الأنصار خلا بامرأة فقبّلها وتلذذ بها فيما دون الفرج . روى الترمذي عن عبد الله قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إني عالجتُ امرأة في أقصى المدينة ، وإني أصبتُ منها ما دون أن أمسّها ، وأنا هذا ، فاقْضِ فيَّ ما شئت ، فقال له عمر : لقد سترك الله لو سترتَ على نفسِك . فلم يردّ عليه رسول الله ﷺ شيئاً ، فانطلق الرجلُ ، فأتبعه رسول الله ﷺ رجلاً فدعاه ، فتلا عليه : (أقِم الصلاة طَرَفَيْ النهار ، وزُلَفاً من الليل ، إن الحسناتِ يُذهبْنَ السيّئات ، ذلك ذكرى للذاكرين) . إلى آخر الآية . فقال رجل من القوم : هذا له خاصّة ؟ قال : لا ، بل للناس كافة . قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

قال : وخرّج الترمذي أيضاً عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأةٍ قُبلة حراماً ، فأتى النبيَّ ﷺ فسأله عن كفّارتها ، فنزلت « أقم الصلاة .. » فقال الرجل : ألي هذه يا رسول الله ؟ فقال : لك ولمن عمل بها من أُمتي » . قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

ثم قال القرطبي : دلّت الآيةُ مع هذه الأحاديث على أن القبلة الحرام واللمس الحرام لا يجب فيهما الحدّ ، وقد يُستدلّ به على أن

لا حدّ ، ولا أدبَ ، على الرجل والمرأة وإنْ وُجدا في ثوب واحد . وهو اختيار ابن المنذر . (القرطبي ، سورة هود ٩/١١٢_١١١) .

* * *

وقال في تفسير قوله تعالى « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلاّ اللَّمَم ، إنّ ربّك واسعُ المغفرة ، هو أعلمُ بكم » (سورة النجم ٥٣ الآية ٣٢) : اللمم هي الصغائر التي لا يسلم من الوقوع فيها إلاّ مَنْ عصمه الله وحفظه . وقد اختُلف في معناها . فقال أبو هريرة وابن عباس والشعبي : اللمم كلّ ما دون الزنى .

وجاء في النهاية لابن الأثير في مادة « لمم » :

« . . ومنه حديث أبي العالية : إن اللمم ما بين الحدّيْن حدّ الدنيا وحدّ الآخرة » أي صغار الذنوب التي ليس عليها حدّ في الدنيا ولا في الآخرة . (النهاية ٤/٢٧٣) .

وأصل اللمم في اللغة : مقاربة الذنب (المصباح المنير) وهو من قولك ألممت بكذا أي نزلتُ به وقاربته من غير مواقعة (المفردات للراغب الأصبهاني ص ٤٥٤) أو مقاربة المعصية من غير ايقاع فعل . (النهاية لابن الأثير ٤/٢٧٢) .

وفي الصحاح للجوهري :

وألمّ الرجل من اللّمم : صغار الذنوب . وقال :

إنْ تغفر اللهم تغفِرْ جَمّـــا
وأيّ عبـــدٍ لك لا ألمّـــا

وقال وضّاح اليمن :

إذا قلتُ يومـــاً نوّليني تبسّمتْ
وقالت معاذ الله من فِعْل ما حَرُم

فما نوّلتْ حتى تضرّعتُ عنــــدها
وأنبأتُها مـــا رخّـص الله في اللمم

قال في الصحاح : (مادة نول) : يعني التقبيل . (وانظر ثمار القلوب ١١٠) .

* * *

وقد منع الرسول الرهبانية فقال: « لا رهبانية في الإسلام ». وورد أيضاً « لا صرورة في الإسلام » (الفائق ٢/٢٩٣) لأنّ الامتناع عن الزواج هو حرمان النفس من حاجة طبيعيّة لا يمكن الاستغناء عنها . وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص أن عثمان بن عفّان أراد أن يتبتّل فنهاه النبيّ (تفسير القرطبي ٣٢٨/٩) .

* * *

وحضّ الرسول على النكاح الحلال وأغرى به . ومن أقواله عليه السلام في ذلك : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغضّ للبصر وأحصَنُ للفرج . »

وقال : تزوّجوا فإني مُكاثر بكم الأمم » .

وقال : « مَنْ تزوّج فقد أحرز نصف دينه » أي أن النكاح يمنع من الزنا .

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : إني أصبتُ امرأة ذات حسب وجمال ، وإنها لا تلد . أفأتزوّجها ؟ فقال لا . ثم أتاه الثانية فنهاه ، ثم أتاه الثالثة . فقال : تزوجوا الودود الولود . فإني مكاثر بكم الأمم . حديث صحيح . (تفسير القرطبي ٩/٣٢٨)

ومنع الرسول أن يغلو الأبُ في مهر ابنته ، لئلا يكون ذلك مانعاً للزواج . وإذ كانتْ مهورُ كندة غاليةً ، كما ذكرنا ، فقد دعا الرسول أن يُذهب ملك غسان ، وأن يخفض مهور كندة ، وطبّق الرسول ذلك على من تزوجه من النساء أو زوّجه من بناته .

وتبعه الخلفاء بعده ، فقد خطب عمر يوماً ، مُنكِراً غلاء المهور فقال : أيها الناس لا تغالوا بصَدَاق النساء ، فإنه لو كان مكرمة في الدنيا وتقوى عند الله كان أولاكم بها النبي ﷺ . ما أصدق امرأة من نسائه ، ولا أُصْدِقت امرأةٌ من بناته أكثر من ثنتيْ عشرة أوقية . (اللسان مادة علق) .

لكن غلاء المهور ظلّ مشكلة اجتماعية . فقد تمسّكت النساء بالمهور الغالية . وحتى إن عمر بن الخطاب نفسه عندما تزوّج أم كلثوم بنت علي أبي طالب أصدقها أربعين ألف درهم (قرطبي ٥/١٠١) .

* * *

وأجاز الرسول أن ينظر الرجل إلى من يريد زواجها . وقد أراد المغيرة بن شعبة أن يتزوج امرأة ، فقال له النبي ﷺ : انظر إليها فإنه أجدرُ أن يُؤْدَمَ بينكما » . وقال عليه السلام لآخر : انظر إليها فإنّ في أعين الأنصار شيئاً » أخرجه في الصحيح . قال الحميدي وأبو الفرج بن الجوزي : يعني صفراء أو زرقاء ، وقيل رمصاء . (قرطبي ١٤/٢٢١) .

وروى أبو داود من حديث جابر عن النبي أنه قال : إذا خطب أحدكم المرأة ، فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل .

وقال سهل بن أبي حثمة : رأيت محمد بن مسلمة يُطارد ثُبَيْتَهَ بنت الضحاك على إجّار (سطح) من أجاجير (سطوح) المدينة ، فقلتُ له : أتفعل هذا ؟ قال : نعم ، قال النبي ﷺ : إذا ألقى الله في قلب أحدكم خطبة امرأة فلا بأس أن ينظر إليها . (قرطبي ١٤/٢٢٢)

ولكن ماذا ينظر منها ؟ قال مالك : ينظر إلى وجهها وكفّيْها ، ولا ينظر إلا بإذنها . وقال الشافعي وأحمد : بإذنها وبغير إذنها إذا كانت مُسْتَترة . وقال الأوزاعي : ينظر إليها ويجهَد ، وينظر مواضع اللحم منها . وقال داود : ينظر إلى سائر جسدها تمسّكاً بظاهر اللفظ. قال القرطبي : وأصول الشريعة تردّ عليه في تحريم الاطلاع على العورة (قرطبي ١٤/٢٢٢) .

* * *

وجعل الرسول شبه الولد بأبيه أو أمّه بسبب الماء . فقال : إن ماء الرجل غليظ أبيض ، وماء المرأة رقيق أصفر ، فمن أيّهما علا أو سبق يكون منه الشبه . (رواه مسلم) .

وفي حديث آخر اجابةً لسؤآل يهودي قال الرسول : ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر ، فإذا اجتمعا فَعَلا مَنْيُ الرجل منيَ المرأة أذْكرا (أي كان الولد ذكراً) بإذن الله . وإذا علا منيَ المرأة منى الرجل آنثا (أي كان الولد أنثى) بإذن الله (مسلم) .

* * *

وأنكر الرسول على المرأة أن يدعوها الرجل إلى الفراش فتابى . فقد قال : والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها فتابى عليه إلاّ كان الذي في السماء ساخطاً عليها ، حتى يرضى (زوجُها) عنها . (تفسير القرطبي ١٤ ـ ١٧) .

وقالت عائشة : لا تمنع المرأة نفسها من زوجها وإن كانت على ظهر قتَب . (النهاية في غريب الحديث ٤ ـ ١١) وفي هذين الحديثين حثّ للنساء على مطاوعة أزواجهن في هذا الباب .

وهكذا نرى أن القرآن والسنة قد تحدثا عن الأمور الجنسيّة ، وبيّنا قواعدها الواضحة . ولقد أطلق للعرب الحرية الجنسية ليتمتعوا ويلذوا ، ولكن ضمن نظام وقواعد ، لأن القرآن أُنزل لهدى البشر ، وهذه أمور ليس شيء ألصق منها بالبشر .

* * *

ولنر الآن كيف كانت حالة الرسول والصحابة في الأمور الجنسية .

لقد اتبع الرسول ما أحلّه القرآن ، ورخص له فيه خاصّةً .

فقد تزوّج إحدى عشرة امرأة، ومات عن تسع. وكنّ كلّهن ثيّبات غير أبكار ، ما عدا عائشة رضي الله عنها تزوجها وعمرها تسع سنين، وكن متزوجات قبله أزواجاً ماتوا أو قتلوا ، وكانت بعضهن أكبر سناً منه .

ولم تكن غاية محمد من زواجه اللذة والشهوة وحدها ، وإلا لما اختار زوجاته ثيّبات أرامل مُسنّات . وكان بوسعه أن يختار من فتيات العرب أعظمهن جمالاً وفتنة وسحراً . لكنه لم يفعل . ولقد كان زواجه منهن لغايات سياسية ، أو انسانية بحتة [1] ، وهذا لا ينفي أنه حُبّب إليه النساء لأنه بشر كالبشر . (وما أنا إلاّ بشرٌ مثلكم) .

ولقد عاب اليهود على النبي ﷺ الأزواج وعيّروه بذلك ، وقالوا ما نرى لهذا الرجل همة إلاّ النساء والنكاح ، ولو كان نبياً لشغله أمر النبوة عن النساء . فأنزل الله تعالى قوله (ولقد أرسلنا رسلاً قبلك ، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ، وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله) . (الرعد الآية ٣٨) .

فذكّرهم الله في هذه الآية أمر داود وسليمان ، قال القرطبي : ومعنى

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابنا : رسائل إلى شاب متشكك ، الرسالة السابعة .

جعلنا لهم أزواجاً أي جعلناهم بشراً يقضون ما أحلّ الله من شهوات الدنيا . وإنما التخصيص في الوحي . (قرطبي ٩ــ٣٢٧) .

وكان الرسول طول حياته معلّما النـــاس دينَهم ، ومن الدين مـا يتعلّق بالأمور الجنسيّة . وكانت نساء الأنصار ذوات جرأة على السؤال والاستفسار عن أمور الجنس . فكنّ يسألن عائشة ، فتسأل رسول الله ، وتبيّن لهم .

* * *

استار كثير من الصحابة بسيرة الرسول في الرغبة بالنكاح ، واتبعوا ما أحلّه القرآن . فتزوج بعضهم أربعاً من النساء وزادوا عليهن من مُلك اليمين ما شاءوا . فكان عند عليّ بن أبي طالب بعد وفاة فاطمة عليها السلام أربع زوجات وتسع عشرة وليدة يتمتع بهن ، وكان يقول : إني مشتاق إلى العرس .

وكان الحسن بن علي كثير الطلاق ، حتى يروى أن علياً عليه السلام صعد المنبر وقال : ألا لا يزوّجن أحدٌ منكم الحسن فإنه مِطلاق (مآثر الإنافة ١ــ١٠٥) .

وذكروا أن المغيرة بن شعبة ، وهو صحابي ، قال عن نفسه إنـه تزوّج سبعين امرأة ، وقيل ثمانين . فقد كان نكّـاحاً للنساء ، فكان يتزوج ويطلّق . وذكر أنه كان يرضيهن في شبيبته بالباه ، فلما أسنّ أرضاهن بالمداعبة والمفاكهة ، فلما شاب أرضاهن بالمال .

وفي حقبة الخلفاء الراشدين ظهرت أمور كثيرة تدل على سلطان الجنس على العرب ، مما كان في العصر الجاهلي . فنحن نجد أن بعض العرب لا يتقيد بنصوص القرآن من تحريم الزواج بالأمهات . فيقولون إن منظور بن زبان تزوج امرأة أبيـــه وولدت له . وكان يشرب الخمر . فرفعوا أمره إلى عمر ، فقال له : أتنكح امرأة أبيك وهي أمك ؟ أو ما علمتَ أنّ هذا نكاح المقت ؟ وفرّق بينهما . فتزوّجت بعده ، فرآها وهي تمشي في الطريق ، وكانت جميلة رائعة الحسن . فقال : يا مليكة ! لعن الله ديناً فرّق بيني وبينك .

ولعلّ في هذا أثار من مزدكية الفرس ، أو شهوانية بعض العرب الحيوانية .

وقد اتهموا خالد بن الوليد أنه ما قتل مالك بن نوْيرة ـ عندما أرسله أبو بكر لقتال أهل الردّة ـ إلا لمّا رأى جمال زوجتـه فأراد أن يتزوجها . وكان لها ساقان لم يُرَ أحسن منهما . فلما عاد خالدٌ من قتاله عيّره عمر وقال له : قتلت امرءاً مسلماً ونزوْت على امرأتـه . وهذا من الافتراءآت على خالد ، فمثله لا يفعل هذا .

* * *

وكان كبار الصحابة يتحدثون عن الأمور الجنسية ، أو يذكرون ألفاظ النكاح السافرة وأعضاء المرأة الخفية ولا يجدون حرَجاً ، كأنه أمر بسيط . رووا أن عبد الله بن عباس سُمع يُنشد في المسجد الحرام ، وهو مُحرم ، شعراً جنسيّاً فاحشاً يقول :

وهُنَّ يَمْشِينَ بنا هَميسا إن تَصْدُقِ الطيْرُ ننك لميسا

فقيل له : يا أبا العباس ! أتقول الرفَث وأنت محرم ؟ قال : إنما الرفَثُ ما روجع به النساء . فرأى ابن عباس أن الرفث الذي نهى عنه الله هو ما خوطبت به المرأة . فأما أن يرفث في كلامه ولا تسمع امرأة رفثه فغيرُ داخلٍ في قوله (فلا رَفَثَ ولا فُسوقَ في الحجّ) (اللسان . مادة رفث)

ولم تكن النساء يخشين من التحدث عن ميلهن إلى النكاح الحلال . ولعل البيتين اللذين سمعهما عمر بن الخطاب تنشدهما امرأةٌ غاب عنها زوجها أوضح دليل على الميل القويّ العنيف إلى النكاح ، مما تشعر به المرأة أحياناً . وهما :

تَطاولَ هــذا الليلُ واسودّ جانبُه
وأرّقني أنْ لا خليلَ أُداعبُــهُ

فواللهِ ، لولا الله ، لا ربَّ غــيرُه
لزُعْزِعَ من هــذا السرير جوانبُه

فهذا الأرقُ الذي أصابها لم يكن إلا لفقدان خليل بجانبها يُداعبها ويروي غليل شهواتها . ولولا أنها كانت تخاف الله لزُعزع من السرير جوانبه . وزعزعة السرير هــذه تعبّر عن أقصى ما تقوله المرأة للافصاح عن رغبتها في النكاح ، وإن كان حلالاً .

ونظرت المرأة إلى نفسها أنّها وسيلة إلى اللهو واللذة والمتعة .

كانت عائشة تقول : النساء لُعَبُ الرجـــال ، فليزيّن الرجلُ لعبتَه ما استطاع ، فإن ذلك أدْعى لشهوته وأملأً لعينه .

وتحدّثت رَمْلَةُ بنتُ الزبير عن النساء فقالت : نحن رياحين للشمّ والضم .

* * *

وظهر أثر الميل إلى النساء في تفسير بعض آيات القرآن والأحاديث عند بعض الصحابة والتابعين . فقال عبد الله بن عباس ، وعبد الله ابن مسعود ، وقتادة ومجاهد في قوله تعالى (إنَّ أصحاب الجنة اليوم في شُغُل فاكهون) : إن شغلهم افتضاض العذارى (قرطبي ١٥/٤٣) .

وفسّر قَتادة قوله تعالى (ولا تُحمّلْنَا ما لا طاقةَ لنا به) بأنه الصبر عن النساء . وفسَّر طاووس قوله تعالى (وخُلق الإنسانُ ضعيفاً) أي في أمر النساء ، لا يصبرُ عنهن . وقال وكيع : يذهب عقله عندهن .

وروى أبو نُعيم في الحلية ، عن كثير بن مرَّة قال : إن السحابة تمرُّ بأهل الجنة فتقول : ما تريدون أن أمطركم . فلا يتمنّون شيئاً إلا أمطِروا . قال كثير : لئن أشهدني الله ذلك لأقولنّ لها أمطرينا جواري مزيّنات ! (الحلية ٥/٢١٤) .

* * *

وقد كان للجنّة التي وُعد بها المتّقون النصيب الكبير من خيال

المسلمين الجنسي ، فصبغوها بصبغة جنسية مادية كالتي عرفوها ، وخاصة في وصف « الحور العين » . فعن قتـــادة أن الحوراء هي التي يُرى ساقها من وراء ثيابها ، ويرى الناظر وجهه في كعبها ، كالمرآة من رقة الجلد وبضاضة البشرة وصفاء اللون (قرطبي ١٥٢/١٦) .

وقال ابن عباس : ان الرجل من أهل الجنة ليُعانق الحوراء سبعين سنة لا يملّها ولا تملّه ، كلّما أتاها وجدها بكراً ، وكلما رجع إليها عادت إليه شهوته ، فيُجامعها بقوة سبعين رجلاً لا يكون بينهما مَنْيٌ ياتي منه ولا منها (قرطبي ٤٥/١٥) .

* * *

وبدأ عند المسلمين العرب أمرُ الاعتناء بأنفسهم وزينتهم وطيبهم ، لإرضاء النساء . قال ابن عباس : إني أحبُّ أن أتزيّن لامرأتي كما أحبُّ أن تتزيّنَ المرأةُ لي .

وقال يحيى بن عبد الرحمن الحنظلي : أتيتُ محمد بن الحنفيّة (ابن علي بن أبي طالب) فخرج إليّ في مِلحفةٍ حمراء ، ولحيتُه تقطر من الغالية « الطيب » . فقلتُ : ما هذا ؟ قال : إن هـــذه الملحفة ألقتْها عليّ امرأتي ودَهَنَتْني بالطيب ، وإنهن يشتهينَ منّا ما نشتهيه منهنّ . (قرطبي ٩٧/٥) .

* * *

ولا بدّ لنا ، ونحن نتحدث عن عصر الرسول والخلفاء الراشدين من أن نسوق خبر سَجَاع المتنبّئة ، التي تنّبأت في الردّة ، بعد موت النبي بالجزيرة في بني تغلب ، ثم ذهبت إلى اليمامة . وكان فيها مُسيلمة الكذاب . فخافها ، واحتال عليها بإثارة حواسّها الجنسيّة ليتغلّب عليها .

فيُروى أنه أهدى إليها هدية ، واستأمنها وقال لأصحابه : اضربوا لها قبة حمراء ، وخمّروها بالطيب لعلّها تذكر الباه . ففعلوا . فلما أتته قالت له : اعرضْ عليّ ما عنـــدك ، واقرأْ عليّ ما يأتيك به جبريلُ . فقال : (ألم تَرَ إلى ربّـك كيف فعل بالحُبْلى ، أخرج منها نَسَمَةً تسعى ، من بين صِفاقٍ وحَشى) .

قالت : وما أُنزل عليك أيضاً ؟

قال : (ألم تَرَ أن الله خلقَ النساءَ أفواجاً ، وجعل الرجالَ لهنّ أزواجاً ، فنولجُ لهنّ إيلاجا ثم نُخرجُ ما شئنا إخراجا .) .

فقالت : صدقتَ ! إنك نبي .

فقال لها : هل لك أن أتزوّجك فيُقال : نَبيٌّ تزوّج نبيّة ؟

قالت : نعم . فقال لها :

ألا قومي إلى النَيْـــك
فقـــد هُيّ لك المضجعْ
فإنْ شئتِ سَلَقْنـاكِ[1]

---

(١) سلق المرأة سلقاً بسطها على قفاها فجامعها « تاج العروس » .

وإنْ شئتِ على أربعْ
وإنْ شئتِ بثُلُثَيْـــه
وإن شئتِ بـــه أجمعْ

فقالت : بل به أجمع يا رسول الله ، فإنه للشمل أجمع .

فقال : بذلك أُوحي إليّ !

فجرى المثل بغلمتها . حتى قيل « أغْلَمُ من سَجَاح » .

(ثمار القلوب ٣١٦ ـ وتاج العروس) .

وقـد ذهب الأستاذ الزركلي في أعلامه (٣ / ١٢٢) إلى أن هـذا الحوار موضوع ، وأنه من مجون القصّاصين للتشنيـع عليها . لـكننا لا نجد فيه ما يُخالف أخبار بعض النساء في الجاهلية ، بل هو يعكس صورة صادقة عن حياتهن الجنسية المستهترة ، ثم إن ضرْب المثل بغلمة سجاح يجعلنا نرجّـح صدق الخبر .

* * *

وعلى الجملة كان عهـــد الرسول والخلفاء الراشدين عهدَ انطلاق للتمتع باللذات الجنسية الحلال ، وعهد ولوع بها ، وتتبّـع لها ، وصراحة في التحدث عنها ، وفي تطلّبها ، ضمن القواعـد التي ذكرها القرآن واستنّها الرسول ، وإن ظهرت بعض الأمور ممـــا خرج عن الحلال إلى الحرام .

الجِنسُ في العَصْرِ الأمَويّ

وقامت الدولة الأموية ، فانتقل الحكمُ من الجزيرة إلى دمشق ، ونال أهل المدينة الضيق والعنت . فانصرفوا إلى الفقه فكان منهم فقهاء المدينة السبعة . وانصرفوا إلى الغناء فظهر فيهم كبار المغنين . وجهتان مختلفتان متباعدتان ، وجد أهل المدينة فيهما خلاصاً من ضيقهم . ولكن الذين مالوا إلى اللهو وإلى الغناء كانوا أكثر ممن مال إلى الفقه والتقى . فانطلق الناس في المدينة ، وفي مكة أيضاً ، وراء اللذات الجنسية . ورافق هذا الانطلاق صراحة في التحدث عن تلك اللذات والتفنن بها بالحلال وبالحرام .

ومن الصعب الاستفاضة بتفصيل ذلك ، وسنسوق ظواهر تدل على الانطلاق والحرية والتفنن .

ففي المدينة ظهرت امرأة اسمها « حُبّى » . ضُرب بها المثل بحبّ الجماع ، فقيل أشبق من حُبّى . ذلك أنها كانت تحب النكاح حباً جمّاً ، وتؤثره على كل طيبات الدنيا . وبلغت من الكبر عتياً ، وظلّت

الشهوة تفور في جسمها . فتزوّجت شاباً اسمه ابن ام كلاب لتشفي ، كما قالت ، غليلها وتموت . وكان نساء المدينـة يسمّون ُحبىّ « حوّاء أمّ البشر » لأنها علّمتهن ضروباً من هيئات الجماع ، ولقّبتْ كل هيئة بلقب ، مثل القَبْع وغيره ، وعلمتهنّ الحركة والغَرْبلة والنخير والرّهْز ، وهنّ في الفراش مع أزواجهن . وكانت المرجع الأوّل في الأمـــور الجنسية في المدينة ، وقد سألها ابنُها يوماً : أيُّ حالات الرجال أحبُّ إلى النساء ؟ فقالت : يا بنيّ ! أمّـا إذا كانت مثلي ، (أي ُمسِنّة) فابركها ، ثم خذها فالصق خدّها بالأرض . فأما الشابة ، فاجمع فخذيْها إلى صدرها ، ثم خذها من خلفها . فإنك تدرك بذلك ما تريد (بلاغات النساء ٢١٥) .

ولها أخبار كثيرة ذكر بعضها صاحب بلاغات النساء ، وصاحب الأغاني ، كما أن لها أقوالاً مأثورة تدل على عقل وحكمة .

وكان في المدينة أيضاً الدلاّل المخنّث . وكان من أبطال الحيـــاة الجنسية في الصدر الأول من الإسلام . كان يعرف نساء المدينة ويلهو بهن . وكان مَنْ أراد خطبة امرأة سأله عنها وعن غيرها ، فلا يزال يصف له النساء واحدة واحـــدة حتى ينتهي السائل إلى ما ُيعجبه وُيوافق هواه . ويذكر أبو الفرج أنـه كان يتوسّـط في الزواج بـين المرأة والرجل ، فاذا اتفقا أغرى المرأة فأتاها قبل زوجها ، وأغرى الرجل فدفعه إلى أن يلوطه قبل أن يدخل على امرأته . وانتهى بـه الأمر إلى أن ُخصي مع مخنّثي المدينة لإفسادهم النساء .

وفي الأقاصيص التي رواها أبو الفرج عنــــه دلائل كثيرة على الصراحة في التحدّث عن الأمور الجنسية ، وعلى ما كانت عليه بعض نساء المدينة من شدّة الشبق وتطلّب النكاح . وفيهـا اشارات إلى فن الحب الجنسي ، وبعض الأمور البسيكولوجية عند النساء من حبّهن المطاولة في الجماع ، وازدرائهن مَنْ لا يوافق لذتهن ، وعدم معاودتهن إيّاه ، ولو أعطاهنّ الدنيا .

ويذكر أبو الفرج فيما ذكره عنــه ، أنه توسّـط مرّة لدى امرأة لثُري راغباً في شراء وصيفةٍ ابنتَها . فذهب معـــه إليها . قال : فخرجت وصيفة ما رأى الراؤن مثلها . فادبرتْ وأقبلتْ ، فما بقي منها شيء إلاّ وضع يـــده عليه . ثم ضمّت الإزار فظهرت محاسنها الخلفيّة . فضرب الرجلُ بيده على عجيزتها وصدرها . ثم ألقتْ إزارها وتجرّدتْ فإذا هي أحسن خلق الله ، كأنها سبيكة .

فلولا أنّ الدلال كان في المدينة ، وفي القرن الأول من الهجرة ، لحسبنا أن الذي جرى كان في بغداد ، في دار قيّان يعرض قينة تهب اللذة للرجال ، في القرن الثالث ، إبّـان ازدهار الحضارة والانغماس في اللهو واللذات .

وصار حب النساء المدنيات للرجل القادر على الجماع ، الموفّـر لهن لذّاتهن ، لا يُعادله شيء ، ولو كان هـذا الرجل من أقبح خلق الله . جاء موسى بن مصعب بن الزبير امرأة مدنيّة ، فإذا هي بارعة الجمال .

ورأى في دارها شابّاً دميماً يأمر وينهى ، ويذهبُ ويجيء . فسألها موسى عنه ، فقالت . هو زوجي ، وأنا فـــدىً له . فقال : ويحك ! ما أعظم هذه المصيبة . أهذا الجمال وهـذه الهيئة لهذا القبح ؟ فقالت له : أما والله لو استدبرك بما يستقبلني بـه ـ تقصد عضوه الخفيّ ـ لبعتَ طارفك وتالدك عليـــه ، ولعظُم في عينيك ، وعاد قبحه في عينيك حُسنا .

فقال لها : بارك الله لكِ فيه .

فهـذه القصة تدل على نفسيّة النساء كلّهن أو بعضهن في المدينة يومئـــذ . فالمرأة إذا أوتيت الرجل القوي الذي يُشبع لذاتها باعت طارفها وتالدها من أجله ولو كان أقبح من قرد .

ومع الرغبة في النكاح شاع السحاق في المدينة . ويُقال إن خـبر ذلك بلغ حُبىّ ، الفاسقة المشهورة ، فأتت إلى جواري المدينة وقالت لهنَّ : بلغني أنكنَّ أحدثْتنَّ شيئاً يُقال له السحق ، تستغنون به عن الرجال . فقلن لها : ليس هـذا هو المعنى ، ولكنه خـيرٌ من الحبل الذي فيه الفضيحة . فقالت : لا يخدعنّكن خادع عن الرجال .

وقد كان هـذا الانطلاق في اللذات ظاهراً في المدينة حتى إن عروة بن الزبير ، وكان قضى عمره بها ، تحوّل عنها إلى العقيق . فلما سُئل قال : الفاحشة فيها فاشية ، والناس قلوبهم لاهية .

وما كان بالمدينة كان بمكة أيضاً . ذكر صاحب العقـد الفريد

أنه كان بها من يجمع بين الرجال والنساء ، ويحمل إليهم الشراب . وما كان اجتماعهم لذكر الله بل للّهو والتمهيد للتمتع بلذات الجنس .

وشاعت مغامرات النساء ، فكن لا يجدن حرجاً في العبث بالرجال ، أو التحدث عن أعضائهن الجنسيّة أو وصفها . يقول صاحب الأغاني : إنَّ هنداً بنت الحارث المريّـة دَعتْ يوماً عمر بن أبي ربيعة مع صواحب ليعبثن به . فقالت له : ويحك يا عمر ! اسمع مني . لو رأيتني منذ أيام ، وكنتُ عند أهلي ، فأدخلتُ رأسي في ثوبي ، فنظرتُ إلى فرجي ، فإذا هو ملءُ الكف ومُنية المتمني . فناديتُ : يا عمراه ! يا عمراه .

قال عمر : فصحتُ : يا لبيكاه ، يا لبيكاه !

فأيَّ امرأة تجرأ على التحدث بمثل هذا الحديث إن لم تكن تتمتع بحرية عريضة ، لا تخاف معها الرقابة ولا المجتمع .

ولم تكن هذه الحرية وهذه الرغبة في الجنس ، في المدينة أو مكة بل كانت في البادية أيضاً . وصف ابن ميّادة الشاعر النساء الحُميسيات – أي المنسوبات إلى بني حُمَيْس – فقال إن فروجهن صغيرة ، وصغر الفرج عيب في المرأة ، فالمستحسن أن يكون ناتئاً ضخماً – وشبّه فروجهن بآثار أقدام الضأن في التراب ، فقال :

وتُبْدي الحُمَيْسِيّات في كلّ زينةٍ
فروجاً كآثار الصّغار من البَهم

فسمعت إحدى الحميسيّات ذلك ، فاحتالت على الشاعر حتى قادته إلى خيمتها . قال ابن ميّـــادة : فخرجتْ عليّ جارية كأنها شمعة ، ما رأيتُ في الخلق لهـا نظيراً . وإذا ثوبها الشفّاف ليس يُواري منها شيئاً ، وقد نبا عن فرجها ما وقع عليه من الثوب ـ لضخامته ـ . ثم عاتبتْه على قوله : إن فروج الحميسيات صغيرة . فاعتذر مما قال ، وبدّل البيت فوصف فروجهن بآثار الإبل الكبار في التراب ، مشيراً بذلك إلى ضخامتها .

وهكذا لم تر هذه المرأة حرَجاً أن تُظهر فرجها ، وفوقه الثوب الشفّاف ، لابن ميّـادة ، دفاعاً عن فروج بنـات قبيلتها ولتظهر لـه كذب ما قال .

* * *

وإذا تجاوزنا المدينة ومكة والبادية إلى غيرها من المدن الإسلامية وجدنا أصداء للحياة الجنسية ، تشير إلى الصراحة التي كانت تلازم هذه الأمور حتى من الرجال . يذكر الاصبهاني في الأغاني ـ وهو من أغنى المصادر التي أمدّتنا بأخبار الحياة الجنسية عند العرب ـ أن الحكم بن عبدل ـ وهو شاعر أمويّ كان يسكن الكوفـة ـ صار إلى واسط فشكا إلى أميرها عمر بن هُبَيْرَة شدّة الشهوة . فوهب له جارية من جواريه . فواثبها ليلةَ صارت إليه ، ونكحها ـ على قوله ـ تسعاً أو عشراً . فلما أصبحت قالت له : جعلتُ فداك ! من أي الناس أنت ؟ قال : امرؤ من أهل الشام . فقال : بهذا العمل نُصِرْتم .

فانظر إلى هـذا الشاعر الذي انطلق إلى الأمير يشكو إليه شبقه وشدّة شهوته . والعادة أن يشكو الشعراء إلى الأمراء الحاجة والفاقة . وانظر إلى هذه المرأة التي أعجبها أن ينكحها الشاعر تسعاً أو عشراً في ليلة واحدة . وذاقت ما لم تذقه من قبل ، فطفقتْ تسأل الشاعر : من أيّ الناس هو ؟ فلما أخبرته نسبتْ نُصْرَة أهل الشام على أصحاب عليٍّ إلى قدرتهم وقوّتهم على النكاح .

وهكذا ترى أن الصراحة كانت بلغت في الأمور الجنسيّة حـدّاً بالغاً ، فالغريزة الجنسيّة أمرٌ طبيعيٌ خلقه الله في الرجل والمرأة معاً ، فلم يجدوا من العيب أن يتحدّث النساء والرجال عن هـــذه الغريزة وما يدور حولها . لقـد رأيتَ كيف كان النساء يُبدين ، سرّاً أو جهْراً ، حبّهن النكاح ، أو يصفْنَ أعضاءهن التناسلية ، أو يفخرن بجمالهنَّ ، بل كنَّ يُصرّحن أنّهن يتعمدن إثارة الرجال للنكاح ليلذّوا بهنَّ . قالت عائشة بنت طلحة : « إنا نتشهّى لهذه الفحول بكلّ ما حرّكها ، وكلّ ما قدرنا عليه » . فكانت ترى أن من حقّها أن تثير الفحول ، لتبلغ ما تريد بالحلال .

* * *

ولعل طغيان « سلطان الجنس » هو الذي دفع الشاعر أيمن بن خريم إلى الاعتقاد أن النساء لا يتزيّنَّ ولا يتجمّلن إلاّ ابتغـــاء النكاح . وأنهن إنْ لم يَذُقْـنَ ذلك أصْبَحْنَ مُغْضَبات . يقول :

عَلامَ يُكحّلْنَ حـورَ العيون
وُيحْدِثْنَ بعـد الخِضاب الخِضابا
ويَعْرِكْنَ بالمسك أجيـادَهُنَّ
ويُدْنين عنـد الحجال العيـابا
ويبرِقْنَ ، إلاّ لمـا تعلمـون
فلا تحـرموا الغانيـات الضِرابا
فـلو كِلْتَ بالمُـدِّ للغانيات
وضاعفْتَ بعـد الثياب الثيـابا
إذا لم يُخالَطْنَ كلّ الخـلاط
أصبَحْنَ مُخْـرَنْطِماتٍ غِضابا
يُميتُ العتـابَ خِـلاطُ النسا
ءِ ويُحيي اجتنـابُ الخلاط العتابا

وهناك أبيات لزهير بن مسكين الفهري تعبّر عن عـدم رضا المرأة في هذا العصر عن شيء سوى النكاح :

تقولُ وقـد قبّلتُها ألف قبـلة
كفاك ! أما شيءٌ لديك سوى القُبَلْ
فقلتُ لهـا حبٌ على القلب حفظُه
وطولُ بُكاءٍ تستفيضُ لـه المُقَلْ
فقالت : لعمر الله مـا لذّةُ الفتى
من الحب ، في قول تخالفُه الفِعَلْ

وإذا كان النكاح غاية عند المرأة ، فمن الطبيعي أن تطلب الزوجة فراق زوجها إذا قصّر في إشباع شهواتها . ذكروا أن العجّاج الشاعر تزوّج امرأة فلم يقدر عليها ، فسألوه فراقها ، فأبى . فقدّموه إلى السلطان ، فأجّله شهراً ، لعله يستطيع . فأقبل على امرأته الدهناء بنت مسحل وضمّها إلى صدره . فقالت :

والله لا تملكني بضمِّ
ولا بتقبيلٍ ولا بشمّ
إلاّ بزَعْزاعٍ يُسلّي همِّي
تَسقُطُ منه فَتَخي[1] في كمّي
يطيرُ منه حَزَني وغمّي

***

وقد كان من الطبيعي أن نجد أصداءً لهذه الرغبات الجنسية في شعر شعراء البادية والمدينة ودمشق في القرن الأول . ظهر ذلك في شعر عمر بن أبي ربيعة ومدرسته ، أي عند ابن أبي عتيق ، والعَرْجي . فقد تحدّث هؤلاء الثلاثة في شعرهم عن صلاتهم بالنساء ابتغاء اللذة ، وعن مغامراتهم مع النساء ، وزيّنوا للنساء هذه المغامرات وتلك الصِلات . وشجّعوهنَّ على الإقبال عليها راضيات مشوقات ليذُقْنَ الحب . لكن أي حب ؟ حب جنسي ماديٌ لا يعرف العفّة ، بعيد عن العذرية . فكانت النساء الارستوقراطيات خاصة يتهافتن على عمر للقائه ،

(١) الفتخ ، بفتح التاء ، جمع فتخة ، وهي الحلقة من الفضة .

والتحدّث معه ، ومسامرته ، أو لما هو أبعد من هـذا . وبلغ عمر من الحظ عنـد النساء مبلغاً عجيباً . فلما مات عمّـهن الحزن ، حتى قالت إحـــدى مولّـدات مكة وهي تبكي : من لمـكة وشِعابها وأباطحها ونُزَهها ووصف نسائها وحسنهن وجمالهن . ولم تقف عن البكاء إلا عندما أخبروها أن شاعراً آخر اسمه العرْجي قـد خَلَف عمر فيما كان يقوم به .

وقد رويت عن العرْجي أقاصيص جنسية كثيرة . وشعره كشعر عمر يزيّـن اللذات ويحبّب بالمغامرات . يُروى عنه أنـه واعـد امرأة يحبها في شُعْب من شعاب الطائف . فجاءت على أتان لها ومعها جاريتها . وجاء العرجي على حماره ومعـــه خادمـه . فوثب هو على محبوبته فجامعها ، وقام الغلام فوثب على الجارية ، وإذا بالحمار يثور وينزو على الأتان . فقال العرجي : هذا يوم غاب عذّاله .

على أنك قـلّ أن تجـد في شعر هؤلاء ألفاظاً جنسية فاحشة أو صريحة . فليس فيه من خطر في هذه الناحية ، وإنما خطره أنه يصف النساء وتهالكن على الاجتماع بالرجل ، وعلى اللهو ، بألفاظ حلوة سهلة ناعمة . فهو شعر يحمل العدوى . مـا قرأتْـه امرأة إلاّ ودّتْ ولو في سرّها أنّها كانت هي التي غامرت ، ولهَـتْ ، ولذّت ، وقيل فيها هذا الشعر . وقـد كان شعر هؤلاء يدخل قلوب النساء بلا عناء . فسُمّي شعر عمر « الفستق المقشّر » . وقالوا : إنه لو كان شعرٌ يسحر لـكان شعره سحراً . وتنبّه النـــاس إلى خطره فقالوا : لا تروّوا فتياتكم

شعر عمر بن أبي ربيعة لئلا يتورّطن في الزنا . وهذا القول يدلّ دلالة واضحة على ما كان لشعر عمر من الأثر في قلوب النساء والفتيات يومئذ .

وعدا هؤلاء الشعراء نجد آخرين يطرقون الأمور الجنسية ويغرون بها . هذا شاعر أراد أن يُغري النساء بمنح القبلات لمحبيهن ، فقال شعراً هو في ظاهره عذري ، لكنه يتضمن اللذة كلها :

إذا قبّل الإنسانُ آخرَ يشتهي
ثناياه ، لم يأثم وكان له أجراً

فإن زادَ ، زادَ الله في حسناته
مثاقيل يمحو الله عنه بها الوزرا

فصبغ الإغراء هنا صبغة دينية ، والقبلة أول الطريق في الحب الجنسي ، هي التي تيسّر وتمهّد .

هذا في مكة والمدينة الناعمتين بكثير من الترف ولين العيش . والعجيب أن يظهر ذلك فيهما ، وفيهما نشأ الإسلام .

فاذا انتقلنا إلى ما جاورهما من البادية ، وجدنا الشعراء العذريّين يتأوّهون ويحلمون ، ويسهرون ويشكون ، يمجّدون الحبيبة تمجيداً حلواً عذباً . وأشعار المجنون ، وكُثيّر ، وجميل ، وغيرهم مرآة لهذا الحب العُذري . ثم وجدنا إلى جانب هؤلاء بعض الرجّاز يعبرّ عن ميله

إلى اللذة الجنسية بألفاظ فاحشة وأسلوب بعيد عن رقة الغزل الحجازي ورقته ونعومته وفتنته . فهو يرى أن شفاء الحب لا يتمّ إلا باللـذة الجنسية الكاملة ، وأن النكاح هو الذي ينبغي أن يُعقب التقبيل ..

لا يُعْقِبُ التقبيــــل إلاّ ... بّ
ولا يُـــداري من صميم الحبّ
إلا احتضــــان الرَكب ...
يُنزَعُ منـــه ... نَزْعَ الضبّ

فهذه النظرة إلى الحب نظرةٌ واقعية ، بعيدة كل البعد عن مباهج أحاسيس الروح التي يلقاها العذريّـون في حبهم . إنه هنا يبحث عن مباهج اللذة الجنسية : يريد القبلة والنكاح ، ويصف طَرَفاً من هـذا النكاح المملوء بالشهوة .

ولم تخـل البادية من أقاصيص الجنس بين النساء والتشوّق إليه ، والوصول إليه بطرق غير مباشرة . وقد ذكر صاحب بلاغات النساء قصة معبّرة تدل على ذلك .

مرَّ يزيد المقرّط بثلاث أخوات من الأعراب ، وهو على بعير له ، فأناخ إليهنَّ ، فجعل يحادثهن وقال : نشدتكنَّ الله ، هـــل اشتهيتنَّ الرجال قط ؟ قلن : أيْ والله ، قال : فلتحدثنيّ كل واحدة منكنَّ بأشد شيءٍ مرَّ بها ، ولها ثلث بعيري .

فحدَّثته الأولى أنها زعمت لأمهــــا أن في بطنها غمزاً يؤذيها ،

فسخّنت لهـــا حجارة لتضعها على بطنها ، فوضعتها على فرجها ، فأنزلت . فقال لهـا : قاتلك الله مـا كان أشد غلمتك ، خــذي ثلث البعير .

وقالت الثانية : كنت أمخض سقاء لنـا ، وكلب رابضٌ ناحية ، فلما أخرجتُ الزبدة وقع شيء على ساقي ، فجاء فلحس موضعها . فاستَلْذَذْتُ وَقْـعَ لسانه ، فأقبلتُ أرفع له وأزبده حتى وضعتُه على قُبُلي ، فأقبل يلحس ، وأقبلتُ أمدُّه بالزبد حتى فرغتُ . قال لها : قاتلك الله ! ما كان أشد غلمتك ، خذي الثلث الثاني .

وقالت الثالثة : خرج أبي في النَعَم (الإبل) ، وأمي في الغنم ، وخُلِّفْتُ على أخ لي صغير . فأقعدته على بطني كالمُلاعبة ، فوقعت عقبه على فرجي ، فاستلذذت لينها ، فأخذتُ ساقه بيدي ثم أقبلت أحك بها بين الشفرْين ، وهو يبكي ما أفهم من بكائه شيئاً لشدَّة مـا بي ، فوالله ما زلت بذلك حتى فرغتُ ، وقد انخلعت وركه . وغــدا أعرج منذ اليوم . قال : أنتِ أشدُّهنَّ غلمةً ، خــذي باقي البعير . وانصرف يمشي على رجله إلى رحله ، وقـد خسر ورجن (بلاغات ٢١٢ ـ ٢١٤) .

فهؤلاء الفتيات تحدثن بأمور جنسية صِرْف ، إلى رجل نزل بهن لم يكن لهنَّ به سابق عهد ، فكأن مثل هذه الأحاديث لم تكن مُستغربة .

* * *

ولم تكن الحال في دمشق على غير ما كانت عليه في مكة والمدينة والبادية . فقد كانت تتردّد عند الشعراء الغزلين نغمتان واضحتان : الغزل الناعم العفيف الذي يهزّ الروح ، كالذي نجده عند جرير صاحب العيون التي في طَرْفها حَوَر ، والغزل الإباحي العنيف الذي يثير الشهوة ، كالذي نجده عند الفَرَزْدَق . وقد كان الفرزدق من الذين يتعهّرون ولا يتستّرون ، وفي شعره الكثير من الأدب الجنسي الصريح . فقد وصف جاريته الزنجية وصفاً جنسياً ، وتحدّث أن فَرْجَها تنّور شديد الوهج يزداد طيباً بعد طول الهرج . ووصفُه هذا يذكرنا بوصف ابن الرومي فرج قينة سوداء .

يقول الجاحظ في رسالته « فخر السودان » : وكان الفرزدق أعلم الناس بالنساء ، وكان قد جرّب الأجناس كلّها فلم يجد مثلهن (السودان) ، لذلك تزوج أم مكية الزنجية وأقام عليها ، وفي ذلك يقول :

يا ربّ خودٍ من بناتِ الزَنْجِ
تمشي بتنّورٍ شديدِ الوهْجِ
أَخْثَمَ مثلِ القَدَحِ الخَلَنْجِ

وقد ذكر الفرزدق أيضاً في شعره مغامراته مع فتياتٍ أبكار تمتّع بهن وافتضّهن :

فبتْنَ بجانبيّ مصرّعاتٍ
وبتّ أفضّ أغلاق الختام

وكذلك وصف الجماع غير مرّة في شعره . ففي المرة الأولى وصف أعضاء المرأة الخفية التي جامعها ، وأعضاءه هو ، أدقّ وصف ، لكنه لا يُفهم لصعوبة ألفاظه ، ومرة ثانية وصف عضوه هو :

أدخلتُ فيها كذراع البكر
مُدَمْلك الرأس شديد الأسرِ

زاد على شِبرٍ ونصف شبر
كأنما أدخلتُه في جَمْرِ

وقد نُسبت إليه أبيات يذكر فيها كيف كانت زوجته العجوز تدعوه إلى النكاح وهو لا يستطيع ، وما نعتقد أنها له . وأول الأبيات :

أنا شيخٌ ، ولي امرأةٌ عجوزُ
تُراودني على ما لا يجوزُ

وقد كانت سيرة الفرزدق ، ورغبته في اقتناص اللذة الجنسية ، مما عيّره به جرير . فقد عيّره بالزنا فقال :

تَدَلّيْتَ تَزْني من ثمانين قامة
وقصّرْت عن باعِ العُلى والمكارم

ولا بُدَّ أن نذكر إلى جانب الفرزدق شاعراً آخر هو الأحوص . كان دنيء الأخلاق ، على ما في شعره من رونق وما له من ديباجة صافية . وكان يتغزَّل بنساء ذوات أخطار من أهل المدينة ، وكان يتغنّى بشعره مَعْبَدٌ أكبر مغنٍ في ذلك العصر ، فيشيع غزله في الناس . وكان يرى أنَّ الحياة هي ما يجد فيه المرء اللذة والشهوة وإن لام في ذلك اللائمون :

وما العيشُ إلاّ ما تلذّ وتشتهي
وإن لام فيه ذو الشنان وفنّدا

ويُقال إنه سُجن مرَّة فقال : « إذا أخذتُ جريري – أي إذا أُطلق سراحي – لم أُبالِ أيّ الثلاثة صرتُ : ناكحاً أو منكوحاً أو زانياً . » فجُلد على ذلك ونُفي .

ويُقال أنه نزل مرَّة على الوليد بن عبد الملك . فكان يُراود الغلمان الخبّازين في قصر الوليد على أنفسهم ، ويريدهم أن يفعلوا به ، إذ كان مأبوناً . فجُلد وصُبّ على رأسه الزيت .

فمذهب الأحوص في العيش هو أن يلذ . ولا شك أن مذهبه هذا هو الذي دفعه بجرأة أن يطلب من خبازي قصر الوليد أن يعبثوا به .

وقصة الأحوص تشير إلى وجود اللواط في العصر الأموي حتى جرأ هذا الشاعر أن يطلب من الغلمان ذلك وهو في قصر الخليفة .

وثمة شاعر أموي ثالث ، مرَّ ذكره من قبل ، هو بن الحَكَمُ بن عَبْدل ،

نجد في شعره وصفاً لمتاعه وحديثاً عن اعتدائه على جاراته ، لكنه مبتذل فاحش .

***

وإذا كنا تحدثنا عن اهتمام بعض المجتمعات ، وبعض الشعراء ، في القرن الأول ، في الأمور الجنسية ، وتتبعهم لها ورغبتهم فيها ، فينبغي أن لا نهمل الخلفاء الأمويين ، وخاصة المتأخرين منهم .

لقد احتفظ هؤلاء بغرائزهم الصحراوية ، ثم زادها تأججاً ما لقوه من ترف ونعيم ، وما صار من مستلزمات الحضارة . كانوا يرغبون في النساء أشدَّ رغبة ، فتمتعوا بما ملكوا من الجواري ، وربما تزوجوا من الحرائر . ذكر الجاحظ في رسالته عن عشق القيان أن معاوية كان يؤتى بالجارية فيجرِّدها من ثيابها بحضرة جلسائه ، ويضع القضيب على رَكْبها ويقول : إنه لمتاع لو وجد متاعاً . هذا إن صح الخبر . ويبدو أنه فعل هذا بعد أن أسنّ . على أن ولوع الخلفاء الأمويين بالمرأة زاد منذ تولّى آل مروان . فذكروا أن عبد الملك كان شديد الشغف بالنساء فتمتّع بهن . فلما أسنّ وكبر وضعف عن الجماع زاد غراماً بهن وحباً بالتحدث عنهن ، وأصبح يسوءه أن يرى القادر على إتيانهن . دخل عليه ذات يوم أيمن بن خُرَيْم التابعي ، فسأله عبد الملك :

ـ كيف قوّتُك ؟

قال : إني لآكل الجذَعة ، وارتحل البعير ، وافترع العـــذراء ، لا يقعدني عنها الكِبَرُ .

فغاظ ذلك عبد الملك ، ومنعه العطاء . لم يغظه أنه يأكل ولا أنه يرتحل البعير ، وإنما غاظه أن وجد لديه ما فقده هو . فقد حدَّثه أنه قادر على أن يفترع العذراء ، رغم كبره . وضاق ابن خُريم ذَرْعاً لمنعه العطاء ، واحتاج إلى المال . فاحتال أن دفع زوجته لتذهب إلى زوجة عبد الملك لتشكو لهـــا أن زوجها أيمن عاجز لا يقربها . فلما علم عبد الملك ذلك أعاد إليه عطاءه .

وكان هشام أكثر ولوعاً بلذاته ، رغم أنـــه كان يجمع الأموال ويتّخذ الخيل ، حتى جمع لديه أربعة آلاف فرس من خيله وخيـــل غيره . فقد أرسل إلى افريقية يطلب الجواري البربريّات « لأنهن ، على قوله ، أدعى إلى الشهوة » . وتمتع بالنساء طويلاً حتى ملّهن وقال : أتيتُ النساء حتى ما أُبالي امرأة أتيتُ أم حائطاً . وله قصة مشهورة وقعت مع الشاعر أبي النجم العجلي تبين اهتمامه بالجنس والمرأة .

وأحب يزيد بن عبد الملك سلّامة القَسّ حباً شديداً وغلبتْ عليه . ثم جاءت حَبابة ، فضاع بينهما . كانتا تغنياه ويلهو بهما ، فيقول : ريد أن أطير . فتقول له حَبابة : وعلى منْ تدع هذه الأمة وتدعنا .

وأثّرت حَبابة فيه حتى تعطلت أمور الدولة . فكان يؤثر البقاء معها على الذهاب إلى صلاة الجمعة . وصارت تولّي وتعزل . فلما ماتت

أخرّ دفنها . وعكف يقبلها ويبكي ولا يظهر للناس حتى فاحت رائحتها، فدُفنت فأقام على قبرها .

هذه أمثلة عن ميـــل الخلفاء الأمويين إلى النساء ، على أنهم جميعاً لم يتمتعوا إلا بما ملكت أيمانهم ، ولم يغالوا في اقتناص اللذات ، ولم يظهر منهم ما ظهر من خلفاء العباسيين من التبـذل والفحش والعُهْر ، ولم يُذكر عنهم ما ذكر عن أولئك من شذوذ جنسي وأمور حقيرة . ولم يشجّعوا الناس على اللهو والجرأة على الحرام . ولم تعرف دمشق في عهدهم البغاء ولا الحانات ولا المواخير ، إنَّ ما كان لديهم من حب اللذة الجنسيّة قطرة صار عند الخلفاء العباسيين ، فيما بعـــد ، بحراً خِضمّاً .

الجنس في العصر العبّاسيّ

كان العصر العباسي عصراً خصباً في كل شيء ، ولم تنطلق الحياة الجنسية وتزدهر في عصر من عصور الإسلام كما انطلقت وازدهرت في هذا العصر . فقد زاد اهتمام الناس بالجنس وهاموا وراءه ، ونالوا ما اشتهوا من لذات جنسية مختلفة الألوان . وقد أثّر في ازدهار الحياة الجنسية ثلاثة عوامل . الأول : الاستعداد الغريزي في نفوس العرب وميلهم إلى اللذة الجنسية أنّى كانت . والثاني : تأثير الفرس المستعربين وقد كانوا قبل الإسلام اباحيين يقطفون اللذات أنّى وجدوها ، ينكحون أمهاتهم وبناتهم . فهذه الإباحية ظلت في أعماق نفوسهم ، وظهرت في أقوالهم وأشعار الشعراء المسلمين منهم ، وتأثر بها العرب المحيطون بهم .

أما العامل الثالث فكان الحضارة التي نعمت بها بغداد ، فكان من نتائجها الترف الواسع ، والغنى العريض ، والحرية المطلقة ، والتبذل الوافر ، وضَعْفُ أثر الدين في الطبقات الارستوقراطية والأدبية .

***

ولقد كان هناك مصدران مهمان للذائذ الجنسية في ذلك العصر هما القيان والغلمان .

تدفقت الجواري على بغـداد من كل جانب من الأرض . فـكنَّ مصدراً للغواية ومستودعاً للشهوات الجنسية . وكنَّ بمتناول الجميـع ، يجد الغني ما يرغب فيه ، ويجـد الفقير ما يرضى به . وكانت صنعة القيانة قد احتلّت مكانة مهمة لكثرة الراغبين في القيان . فكان هؤلاء القيّـانون يأتون بالنساء من أقطار شتى وبلاد مختلفة ، فيتعهـدوهن بالعناية والتثقيف ، والتجميل ، يعلّمون بعضهن الغناء ، أو يحفّظوهن الأدب والشعر ، أو يجوّدوهن القرآن ، أو يُخرّجوهن في الغواية والدلّ . حتى كانت القينة تعرف كل ما يحبّب بها الرجل ، وكل ما يثير شهوته . كانت تعيش ـ على قول الجاحظ ـ على ذكر الزنا والقيـادة والعشق والصبوة ، والشوق والغلمة . وكنَّ ـ على قول طه حسين ـ خليعات متبذّلات ، سلاحهن الاغراء والفتنة والخلاعـــة ، يُسرفن في المجون ويتملّقن به لذة الرجال وشهواتهم . وقـد كثُرن كثرة فاحشة وأثرن في الرجال فتهالكوا على اللـــذات واستبقوا إلى الشهوات وأباحوا لأنفسهم معهن من ضروب اللـــذات أنواعاً منوّعة . كنَّ لا يمنعن الشهوات كيف كان لونها وأنّـى كان موضعها . كان للواحدة أحياناً محبّان : لوطيّ وزنّـاء . تعطى هذا أردافها والثاني هَنَها ، لا تخجل ولا ترى بأساً . ثم كنَّ يتفننَّ في تقديم اللذة إلى الرجال . فقـد كن يأتين من بلاد مختلفة ، بعيدة عن بغداد أو قريبة منها ، من الهنـــد

والسند ، والروم ، وأقصى افريقية ، يحملن معهن طرائقهن في الحب الجنسي ، أو كنَّ يتعلّمن طرائق مختلفات يثرن بها شهوة الرجال وشبقهم . وقد كانت براعتهن في هذه الأمور الجنسية مدعاة لشرائهن . عُرضت على المتوكل جارية ، فقال لها : ما تحسنين ؟ قالت : عشرين فناً من الرهز . فأسرع إلى شرائها .

وهكذا عُرفت بواسطة هؤلاء القيان والجواري أساليب مختلفة من الحب الجنسي ، في الاضطجاع ، والاستلقاء على الظهر ، والانبطاح على البطن ، والانحناء ، والوقوف والقعود ، وفي كل وضع من هذه الأوضاع الستة ، استطعن أن يقدّمن من اللذة الجنسية إلى الرجال على أساليب مختلفة متنوّعة . حتى بلغت هذه الأوضاع كلها ستين وضعاً . وهذا رقم لم يبلغ عند الأمم الأخرى . ففي عصر النهضة ، لم يكن يُعرف في ايطالية إلا ستة عشر وضعاً لأوضاع الحب الجنسي ، صوّرها جول رومانو ، تلميذ ميكيل آنج ، فنقشها مارك انطونيو ريموندي .

وقد كان من أثر تطلب القيان الحبَّ الجنسي ، واستعدادهن له ، انهن كن يسعين دائماً أن يكن صالحات لذلك . فدفعهن ذلك إلى العناية بأجسامهن ، وشعرهن ، وخَلقهن . فظهر التظرّف والمتظرفات ، وازدهر التجمّل الصناعي ازدهاراً واسعاً . فكان من الممكن أن تتجمّل الجارية كما تشاء ، وأن تخفي عيوبها كما تريد ، وأن تصبغ شعرها كما تحب ، وأن تسمن إذا كانت هزيلة ، أو تهزل إذا كانت سمينة ، وأن

تبدّل لون عينيها ، وأن تُذهب الكَلَف أو النمش عن وجهها . بل كان من الممكن إذا كانت ثيّباً أن تعود كأنها بكر لم يطأها أحد ، أو أن تُسقط حملها إذا حملت .

وكانت القيـــان الارستوقراطيات ، وهن اللواتي كن للخلفاء والوزراء والطبقـة الموسرة ، أنموذجاً يقلّـدْن في الملابس والأزياء ، وكنَّ على جانب عظيم من الثقافة والذكاء والفتنة ، حتى استطاعت بعضهن بقوة غوايتهن وجمالهن أن يؤثّـرن في قلوب الخلفاء ، وأن يصرِّفن أمور الدولة نفسها .

أما القيان الشعبيّات ، فكنَّ يبعن اللذات لأصحابهن ، وكان اللواتي يُعتَقْنَ يُباشرن البغـــاء في الحانات ، أو في الدور الخاصة ، يبذلن اللذة للطبقة الوسطى من الشعب . يغنين في مجالس الغنـاء ، أو في الحانات ، ثم يقدمن أجسامهن برداً لإطفـاء الشهوات المتأججة عند الرجال .

وكان هؤلاء لا يرغبن أحياناً كثيرة في الزواج الحلال ، بل يُفضّلن الزنا . حدّث الأصمعي أن ناسكاً عشق جارية من البصرة ، فبعث يخطبها . فأبت ، وقالت : إنْ أردت غير ذلك ــ أي الزنا ــ فتقدّم .

وسِيَرُ هؤلاء القيان ، وخاصة القيـان الارستوقراطيات ، على جانب من المتعة . وقـــد حفظ لنا كتاب الأغاني طرفاً كبيراً من أخبارهن وتهتكهنَّ ، وإغرائهنَّ ، ومُجونهن . كعريب ، وعنان ،

وفريدة ، ودُقاق وغيرهن . ومما روى عن دُقاق أنها كانت قيْنة مغنيةً ، جميلة الوجــه ، مشهورة بالظرف والمجون والفتوّة . وكانت تراسل أصحابها تصف لهم هَنَها ، فيجيبونها بوصف متاعهم . وكان لها غلامان خُلاسيان فطلبت من أحدهما يوماً أن يلذّها فعجز . فقالت له : نلني وأنت حُرٌ . فقال لها : نيليني أنتِ ، وبيعيني في الأعراب .

وهكذا كانت هي وعبـدها يبحثان عمن يلذّهما ، لا تُبالي هي ، لكي تلذّ ، أن تُعتق عبدَها ، ولا يُبالي هو ، لكي يلذّ أيضاً ، أن يُباح عند الأعراب القُساة الجُفاة .

وكان مذهبُها أن المرأة تحتاج إلى الجماع أكثر من الرجل ، وكانت نقشت على مروحتها عبارة بهذا المعنى . وهــذا المذهب التي أتت به دقاق إنمـا كان يعبّر عن حاجة النساء الجواري إلى النكاح وتطلّبهنّ إيّاه ، حتى إن جارية البرمكي كتبت على جبهتها : لذّتي في حلّ تِكّتي .

وقد صوّر القَصَصُ الجنسي ـ الذي انتشر في العصر العباسي ، وبعد ذلك العصر ـ هذه الرغبة عند النساء ، حتى إن بعض الجواري كُنَّ لا يَرَيْنَ شيئاً من الأشياء التي تُقـدَّم لهنَّ ، من ملابس ودنانير وهدايا ، نافعةً ، إلا إذا رافقتها اللذة الجنسيّة :

لا ينفعُ الجــاريةَ الخضابُ
ولا الوشاحانِ ولا الجلبابُ

ولا الدنانيرُ ، ولا الثيـــابُ
من دون أن تصطفقَ الأركابُ

وقد عبّر شاعر آخر عن هذه الرغبة فقال :

رأتْ حُبّي سعادُ بلا جماعٍ
فقالت حَبْلُنا حَبْـــلُ انقطاعِ

ولستُ أريدُ حُبّاً ليس فيـــه
مَتاعٌ منـــك يدخلُ في متاعي

فلو قبّلْتني ألفـــاً وألفـــاً
لمـــا أُرْضِيتُ إلاّ بالجماعِ

جماعُ الصبّ غايةُ كُلّ أنثى
وداعيةٌ لأهـــل العشق داعي

(روضة المحبين ٧٨) .

* * *

وفي سبيل اصطفاق الأركاب كانت النساء يقـــدّمن كل ما في وسعهنّ لإرضاء الرجل ، وكنّ يَقْبَلْن من مُحبيهن الطُرُق الشاذة الغريبـة ، والأمور المنكرة العجيبة . ذكر أبو حيان في « البصائر والذخائر » أن بعضهم كان يُدخل في فرج محبوبته نبيـذاً ، ثم يضع شفته على شَفْـرِها فيمصّه حتى يشربه ، فلا تمنعه من ذلـك . وذكر

الجاحظ في « الحيوان » خبر رجـــل مكي كان يعشق جارية اسمها سَنْدَرة ، ذاتِ صِنان ، وكان مُعجباً بذلك منها ، ويمنعها من إزالة الرائحة ، ليتمتّع من شميمها . .

* * *

ومن الطبيعي أن يَكون ابتغاء اللـــذائذ شغل هؤلاء الجواري الشاغل . يبحثن عن ذلك ويفكّرن فيه ، حتى أصبحن يحلُمن به في المنام ، ثم لا يخجلن أن يتحدّثن عما رأيْنَه في منامهن . ذكر الجاحظ في « المحاسن والأضداد » أن جارية اسمها عالج ، حدّثت مولاتها أنهـا تغتسل كل يوم . فسألتها مولاتُها عن السبب ، فقالت لها : يا هـذه ، إنه يجب على المرأة مـا يجب على الرجل بعـــد احتلامه . فقالت : أو تحتلمين ؟

قالت : إنه لا يأتي عليَّ ليلة لا أُجامَعُ فيها إلا وأحتلم .

قالت مولاتها : وكيف يكون ذلك ؟

قالت : أرى كأن رجلاً جامعني . ولقد رأيتُ ليلةً كأني مررتُ بدكّان أبي مالك الطحّان ، وبغلٌ له واقف قد أدلى بذكره . فرماني تحته وأولجه فيَّ ، فاحتلمتُ . ثم انتبهتُ وأنا أجـد معكةً في مراق بطني ، ولذّة في سويدآء قلبي ... » .

* * *

وسبق هؤلاء القيان في بعض ما ابتكرنه نساء العالم جميعاً . ذكر صاحب جوامع اللذة أن احـدى القيان عملت قفلاً وأعطته لصاحبها ليضعه على ذكره فلا يقرب احـدى النساء ، فاقترح عليها أن تجعل قفلاً على فرجها .

والقفلُ على فرج المرأة عُرف في أوروبة بعد قرون ، إبّـان الحروب الصليبية . فقـد كانت النساء يضعن ، إذا سافر أزواجهن إلى الشرق ، زنّار العفة Ceinture de chasteté لئلا يقربهن أحـد . وكان ذلك مدعاة لاطمئنان الأزواج . إذ كانوا يحملون معهم مفتـاح القفل الذي وُضع عند الموضع الخفي من المرأة . أما القفل على ذَكَر الرجل فقد اخترعه طبيب الماني اسمه Weinhold من مدينـة Halle ، في أوائل القرن التاسع عشر ، ليمنع الرجال من اتيان النساء ، أو لمنع المراهقين من جلد عُميرة . وقد نجحت جميع التجارب التي أجراها .

وهكذا نجـد جواري بغـداد يخترعن ، في سبيل اللذة الجنسية ، ما عرفه الغرب بعدهن بقرون طويلة .

* * *

لعل كثرة الجواري هي التي سببت ميل الرجال عنهن ، ورغبتهم في الغلمان . فكان الغلمان المصدر الثاني للذات . وعلى هذا كان العصر العباسي عصر الجواري وعصر الغلمان معاً .

كان الغلمان سُقاةً للخمر ، أو ندامى ، أو خدماً يشتريهم مالكوهم للخدمة ، أو أحراراً يُصطادون . وقــد ولع النـاس بهؤلاء جميعاً ولذّوا بهم . وكانوا يحبّـون الغلام الأهيف القوام الرخيم الكلام ، المراهق ، الفائق الجمال ، الرائق السمرة ، البديع الحمرة ، الأدعج العينين، المورّد الوجنتين ، المختطف الخصر ، النقي الثغر ، المرجّل الشعر ، الذي تجاذبه الأرداف وتهزّه الأعطاف .

لا شك أن للفرس المستعربين أثراً كبيراً في انتشار اللواط وحب الغلمان . فأشهر اللوّاطين في العصر العباسي كانوا من أصل فارسي ، وخاصة الشعراء والعلماء منهم . كوالبة بن الحباب الذي أفسد أبا نواس وآخرين ، وكأبي نواس الذي أفسد خلقاً لا يُعدّ .

* * *

وكان لاثنين من الخلفاء العباسيّين أعظم الأثر في رفع شأن الغلمان والولوع بهم ، هما : الأمين والمعتصم . كلاهما أحب الغلمان وملأ قصره بهم ، واتخذهم لهواً . ثم لم يخل خليفة من الخلفاء بعد ذلك ، من غلام أو أكثر ، أحبه وعشقه وتمتّع به كما سنرى .

كان مالكو الغلمان يتمتعون بهم على أنهم ملك اليمين ، وكان الخلعاء الذين لا يملكون الغلمان يصطادونهم من الطرق أو السكك ، أو الحانات . وكانت دروس العلماء والفقهاء في المساجد تكتظ بالغلمان الذين جاؤا

يتلقون العلم . وهناك كان يجري الإغواء . ويُقال إن مجلس المبرّد كان يحفل بالغلمان الملاح حتى دخل البحتري مرة مجلسه فقال :

« ما أحسن المسجد بقناديله »

وكذلك اشتهر مجلس ابن دريد بذلك حتى قيل فيه :

مَنْ يكن للظباء طالب صيد
فعليه بمجلس ابن دُرَيْدِ
إنّ فيه لأوجهاً قيدتني
عن طِلاب العُلا بأوثق قيدِ

وكان ابن دُرَيْد يصبر على هؤلاء الملاح إذا أخطأوا في القراءة أمامه ، على حين يتضجرّ ممن يخطيء في قراءته ممن سواهم . فيقال إنه حضر عليه غلام وضيء فجعل يقرأ ويُكثر الخطأ ، وابن دريد صابر . فعجب أهل المجلس . فقال رجل : لا تعجبوا فإنَّ في وجهه غفران ذنوبه . فسمع ذلك ابن دريد . فلما أراد الرجل أن يقرأ ، وكان قبيحاً ، قال ابن دريد : هاتِ يا من ليس في وجهه غفران ذنوبه !

وقد دفعتهم عنايتهم بصيد الغلمان إلى وضع النصائح التي ينبغي أن تتبع لإغراء الغلمان الأحرار من ملاطفتهم وإظهار الغيرة عليهم ، وإهدائهم سراً ما يحبون ، أو لخدع آبائهم ، كالتظاهر بالتقى والصلاح وحمل السبحة والإطراق .

ووضعوا الحيل لإتيان الغلمان في الحمامات دون أن يفطن أحد ، والطرق التي تتبع للدبّ في الليل على غلام ينـام مع آخرين . ولأبي نواس قصيدة بائية مطلعها :

« إذا هجع النيّـام فخلّ عني »

يتحدث فيها كيف دبّ على غلام في الليل .

ولمـــا شاع اللواط وانتشر ورغب الناس فيه وُجدت طبقة من الغلمان سُموا بالمؤاجرين يقدّمون أنفسهم لمن يريد . فأصبح ذلك مهنة تدر الربح الوفير . وكان يُدفع للغلام الدرهم والدرهمان والدينار حسب الطلب وشأن الغلام . فكان الغلمان يكتسون أحسن الكُسى ويجمّلون أنفسهم كالقيان والجواري . قيـل لغلام مرة : من أين لك هـــذه الكسوة الجيدة ؟

فقال : ما أظرف هذا السؤال. ترى دار الضرب فيسراويلي وتسألني من أين لي هذه الكسوة ؟

وعلى الجملة كان المال هو السبيل الوحيـد لاصطياد الغلمان ، من أي نوع كانوا . ويذكر صاحب « جوامع اللذة » أن أهل اللواط من آل لوط كانوا يصطادون الغـــلام بالطنبور ، فإذا أعجبهم الأمرد استمالوه بضرب الطنبور حتى يبلغوا منـه مـا يريدون . ثم يقول : وأما صيدهم الآن فلا سبيل إلاّ بالدراهم ، والأعلاق الفاخرة ، والتحف النفيسة ، والأشياء الثمينة .

وقد وضعوا للّواط طرقاً . منها التفخيم ، وهو اتيان الفاحشة كاملة ، والتفخيذ وهو دون ذلك .

على أن بعضهم كان يتخذ غلاماً لنفسه على جهه الفتوة فلا يتمتع به أو يلذ اللذة الجنسية ، بل يقوم مقام الوالد في الذب عنه والمحافظة عليه.

وقد نتج عن الولوع بالغلمان ، وانتشار اللواط ، أدبٌ خاص يمكن أن يسمّى أدب الغلمان واللواط . تحدث فيه الشعراء خاصة عن مغامراتهم وغلمانهم . وسيد هؤلاء أبو نواس . وسنعود إلى تفصيل ذلك .

* * *

ونتج عن حب الجواري وعن الميل إلى الغلمان مهنتان جديدتان هما : البغاء واللواط . فكان في بغداد بغّاؤن ييسرون البغاء ، ويقدّمون النساء لمن يريد اللذة بهن ، وقوّادون يأتون بالغلمان لمن يرغب فيهم . وازدهرت هاتان المهنتان ازدهاراً واسعاً ، ولم تكن الدولة العباسية تمانع في البغاء في الأماكن المخصصة له وهي المواخير أو غيرها ، بل كان لها ضامن يستوفي الرسوم من كل ماخور ويدفع للدولة ما يقرّر عليه . كما كانت البغايا تأتي إلى دور من يدعونهن . ويبدو أن القحاب البغداديات كنَّ يطلبْنَ من زبائنهنَّ دفع الأجر قبل إتيان العمل الجنسي . ذكر أبو حيان التوحيدي في « البصائر والذخائر » أن رجلاً علوياً أدخلَ بيتَه قحبةً ، فلما أرادها قالت . الدراهم . قال :

دعي عنك هذا ، ويحك مع قرابتي من رسول الله ؟ قالت : دع هذا ، عليك بقحاب قُمّ ، هذا لا ينفق على قحاب بغداد . (بصائر ، مجلد ٣/ ق ٢ / ص ٥٣٦) .

وقــــد جعلوا للبغاء واللواط آداباً وقواعد ينبغي أن تتبع ، وأُلفت فيهما كتب كثيرة . وصار كل فريق يدعو إلى مذهبه . فقامت المفاخرات بين الجواري والغلمان . وقد ألّـف الجاحظ مفاخرة نظرية عقدها بين صاحب الجواري وصاحب الغلمان(١) . على أنـ هناك مفاخرات حيّـة كانت تقوم . فكان يجتمع في هذه المجالس المتعصّبون للنساء والمتعصبون للذكور ، ويسوق كل فريق حججه في تفضيل جنس على آخر . وقد يقوم بالمفاخرة فتاة وغلام فيأتي كل منهما بما عنده من أوصاف تثير الشهوة وتحبّب فيه . وقد ساق صاحب « جوامع اللذة » ، والقاضي العيْني في « حكاياته » أمثلة من هذه المفاخرات .

***

لكن النساء أنفسهنّ عمدن أيضاً إلى الشذوذ الجنسي في اقتناص اللذة ، فلجأْنَ إلى السحاق . يقول الجاحظ في كتابه « الحيوان » :

« ومن أكبر ما يـدعو النساء إلى السحق أنّهنّ إذا ألصَقْنَ موضع محزّ الختان وَجدْنَ هناك لذة عظيمة . وكلما كان ذلك منها أوفر

---

(١) نشرها الأستاذ شارل بلاّ في بيروت ، دار المكشوف .

كان السحقُ ألذّ . لذلك صار حُذّاق الرجال يضعون أطراف الكمر ، ويعتمدون بها على محزّ الختان لأنّ هناك مجتمع الشهوة . » .

فمنهُنَّ مَنْ مالت إليه لحاجة فيزيولوجية : ذكروا أن المرأة إذا كان حلقوم رحمها طويلاً مالت إلى الجماع ، وإذا كان قصيراً كرهت النكاح ومالت إلى السحاق . وذكر الكندي أن السحاق شهوة طبيعية تكون بين الشفرَيْن . ومنهنّ من مالت إليه لأسباب أخرى : فالأبكار كُنَّ يخفْنَ الافتضاض ، والثيّبات كنَّ يَخَفْنَ الحبل . وقد قالت إحداهُنَّ :

شربتُ النبيذَ لحبّ الغَزَل
وصِرْتُ إلى السّحْقِ خوْفَ الحبل

والسحاق عندهنّ فيه لذة ، وليس فيه ضرر الافتضاض ولا خوف الحبل ، ثم ليس فيه الحدّ كالزنا . وقد مرّ بك من قبل أن السحاق عُرف في المدينة ، وأن نساء المدينة رغِبْنَ فيه للأسباب نفسها ، في القرن الأول للهجرة .

ووُضعت أشعار كثيرة لمدح السحاق وإغراء النساء به ، كما أُفرِدَتْ كتب خاصة بالسحّاقات . وكما كان هناك مَنْ يدعو إلى النكاح أو إلى اللواط ، فقد ظهر فريق جديد من النساء يدعو إلى السحق . بل قامت معركة بين النكاح والسّحاق . وكانت بعض الجواري يبدأن بالسحاق ويَمِلْنَ إلى النكاح ، وأُخريات يعدِلْن عن النكاح إلى السحاق . وكان

لأبي العتاهية جارية يحبّها ، فتركتْه ومالت إلى السحق . فهجاها ، وأنشأ أبياتاً يُدافع فيها عن النكاح أوّلها :

ألا يا ذواتِ السّحْقِ في الغرب والشرقِ

وقد ذكرها صاحب الأغاني في أخبار أبي العتاهية .

وقد صارت السحاقيات لا يخجَلْن من الإشادة بالسحاق علناً ، وبحضرة الخلفاء . ذكر صاحب الأغاني أن المأمون كان قاعداً ذات يوم يشرب ، وبيده قدح ، فغنّت بَذْلُ المغنّية :

ألا لا أرى شيئاً ألذّ من السحقِ

فوضع المأمون القدح من يده ، والتفتَ إليها وقال : بلى يا بذْل : (النكاح) ألذّ من السحق !.

ويكون في السحاق عادةً ما يكون في النكاح : مُحبّة ومحبوبة . وتعملُ كل منهما على التجملّ والتظرّف حتى تكون شهية مقبولة . وكان بعض الجواري السحاقيات يشتهين سيّداتهنّ ويردْن مساحقتهن : حدّث الجاحظ في المحاسن والأضداد عن سيدة قالت : « كانت الجارية التي اشتريتُها قد ولعت بي . فلما حصلت عندي رمتْ بنفسها عليّ تقطّعني عضّاً وقرْصاً . ثم خلونا نتمزّز القهوة إلى أن يدرك طعامنا ، فتارة هي فوقي وتارة أنا فوقها . فحملها السُكر على أن ضرَبَتْ

يدها على تكّتي فحلّتْها ، ونزَعتْ هي سراويلها ، وصارت بين فخذيَّ كمصير الرجال من النساء ... » .

ومن نوادر الأخبار أن المتوكل ولّى رجلاً اسمه ابن الكلبي البريد . وحلّفه بالطلاق ألاّ يكتمه شيئاً من أمر الناس جميعاً ، ولا من أمره هو نفسه . فكتب إليه يوماً أن امرأته خرجت يوماً مع محبوبتها في نزهة ، وأن محبوبتها عربدت عليها فجرحتها في سرمها . » ذكر ذلك صاحب الأغاني في ترجمة إبراهيم بن العباس .

وكان بعضُ النساء يُساحِقْنَ غلاماً . جاء في « جوامع اللذة » أن امرأة بغدادية اسمها ليلى كانت من ذوات الأقدار . كانت تجيءُ بالغلام فتنوّمه على وجهه ، ثم تُساحق مؤخرتهُ ، فتلتذّ بذلك . واشتهر هذا عنها ، حتى إنّ الصبيان في بغداد كانوا يُغنّون في الدروب : ليـلى يا ليلى ، تعالي ليلا ...

وكما وضعوا للنكاح واللواط أنواعاً وضروباً ، فقد وضعت النساء ضروباً للسحاق كثيرة ، منهـا : الضِفدعي والشراعي ، والمخالف ، والمؤآلف ، والاستكلاب ، وغير ذلك .

* * *

ورغم وجود النكاح والبغاء واللواط ، فإن طائفة من الناس عمدوا إلى الاستمناء ، وأشادوا به ، أو كانوا يلجاون إليه إذا أعوزتهم النساء . يقول أبو نواس مخاطباً إحدى الجواري :

إنْ تبخلي بالرَكَبِ المحلوق
فإنّ عنـــدي راحتي وريقي

وعبّر رجل آخر عن هذه العادة الجنسية فقال : راحلتي رجلاي ، وامرأتي يدي .

ونجد الأعراب أيضاً يشيدون بذلك . روى الجاحظ في « الحيوان » عن أعرابي قوله :

لا باركَ الله في الأحـــراحِ
لا خـــير في السفاح واللقاح
إلاّ مُناجاة بطون الراحِ

وكانوا يردّدون :

إذا نزلتَ بوادٍ لا أنيسَ بـــه
فاجْلُدْ عُمَـيْرةَ لا عارٌ ولا حَرَجُ

* * *

وذهبت طائفة من الناس إلى إتيان الحيوانات . ومن هذه الحيوانات إناث الكلاب . وكان حُرّاس الليل مولعين بذلك . وقـد قصّ علينا الجاحظ أقاصيص بعضهم . روى عن أحدهم أنه قال : كل رجل حارس ليس له زوجة فهو ينيل إناث الكلاب إذا كنّ عِظام الأجسام . وقد

قال أيضاً : نلتُ عامة إناث الحيوانات فوجدتهن كلّهن أطيب من النساء . فسُئل عن سرّ ذلك ، فقال : شدة الحرارة .

وكان هذا الحارس قـــد أقلع عن إتيان إناث الكلاب ، وتزوج امرأتين ، ورزق منهما أولاداً أصبحوا رجالاً ونساءً ، وظـلّ ، مع ذلك يحنّ إلى الكلبات . (الحيوان ١/٣٧١ ـ ٣٧٢) .

وكان بعضهم يأتي البغلات · ويبدو أن البغلات تستلذ نكاح الرجال . وقد تحدثت إحدى جواري وزير المعتضد أنها رأت سائساً للخيل قام إلى بغلة فأولج فيها متاعـه . « وهي ، أي البغلة تتحرك تحته ، وترفع له عجزها حتى فرغ » . (رجوع الشيخ) .

ويذكر الجاحظ أن مملوكاً لبعض أهل قطيعة الربيع بن يونس ، كان يكوم بغلة ، وأنها كانت تودق وتتلّمظ ، أي تخرج لسانها كتلمظ الأكل . وأنها ذات مرة ، صارت تتأخر ، والمملوك عالق بها ، حتى أسندته إلى زاوية من زوايا الاصطبل ، كأنها تريد أن يوعب بها أكثر وأشد ، فاضغَطْته ، فمات . (الحيوان ٣/٢٠٤) .

ويعمّم الجاحظ فيذكر أنـه كانت هناك طبقة من أكثر أهـــل بغداد والبصرة كانوا يأتون الحيوانات . قال .. « فإن هذه الطبقة من النـاس لم يدعوا ناقـة ولا بقرة ، ولا شاة ولا أتاناً ، ولا رمكة ، ولا حِجْراً ، ولا كلبة إلا وقد وقعوا عليها . » (الحيوان ٣/٢٠٣) .

ويصف الجاحظ هـــذه الطبقة بأنها « من سفهاء الناس ، ومن لا يتقذّر من الناس والأحداث ، ومن تشتدّ غلمتهُ عند احتلامه ، ويقلّ طروقه وتطول عُزْبَتُه ... ٢٠٣/٣ » .

ولم يكن الرجال وحـدهم يحبون نكاح الحيوانات ، بـل كان من النساء أيضاً من تحب أن يُجامعها حيوان من الحيوانات ، كالكلاب . حتى ذم الجاحظ أن يكون الكلب في الدار (حيوان ٣٦٩/١) .

* * *

ولم يتورّعوا عن وضع الأحاديث النبوية أو استخدامها ابتغاء الوصول إلى اللذات . نظر ابن مناذر إلى غلام حسن الوجه في مسجد البصرة ، فكتب إليه بهذه الأبيات :

وجدتُ في الآثار في بعض ما
حـــدّثنا الأشياخُ في المُسْنَد
مما روى الأعمشُ عن جابرٍ
وعامـــرٍ الشعبيِّ والأسودِ
وما روى شُعْبَةُ عن عاصمٍ
وقاله حمّادُ عن فَرْقَـــدِ
وصيّةً جـــاءت إلى كلّ ذي
خـــدٍّ خلا من شَعَرٍ أسودِ

أن تقبلوا الراغب في وصلكم
فاقْبَلْ فإني فيـــك لم أزهدِ
نَوِّلْ فكم من جَمْرَةٍ ضمّها
قلبيَ من حبّـــك لم تبرُد

(مختار الأغاني لابن منظور ٧/١٧٨) .

وابن مناذر هذا كان في أول أمره ناسكاً يتألّه ، ثم عدل عن ذلك ، وتهتّك وفتك ، حتى منعه المعتزلة من دخول المسجد . ثم نُفي إلى الحجاز ومات هناك .

* * *

أما الأماكن التي كانت تيسِّرُ اقتطاف اللذات الجنسيّة فكانت متعدّدة وافرة . كان الناس ممن يشترون الجواري فيكنّ ملكاً لهم يتمتعون بهن في دورهم . ولكن كانت هناك أماكن عامة تجعل لهذا الغرض . فكان لفيف من الرفاق اللاهين يتخذون داراً لهم يأتون إليها بالقيان ويلهون بهن . وكانت القيان أنفسهن يجعلن دورهن مكاناً لتقديم اللذات . أو كان بعض البغائين يجعل للبغاء دوراً خاصة يقصدها الناس . ففي هذه الدور كانت اللذات موفورة ، وكان يُستباح كل شيء . يقول أبو البصير الشاعر لصاحبه :

خذ برأس القطا واستخر الله إلى دار قينة الرّماح
حيث لا تُنكر المعازف والخمر ووضع الأيدي على الأحْراحِ

فهذا البيت الثـاني يُفصح عما كان يجري في بعض تلك الدور . فكان هناك العزف والغناء ، وهناك الشراب ، ثم هناك النساء اللواتي لا يمانعن أن تُلمس جسومهن وأعضاؤن الخفيّة .

وثمة أخبار أن هؤلاء النساء أو أُولئك الغلمان كانوا منتشرين أيضاً في بيوت الخمارين اليهود ، وفي الحانات . فكانوا يسقون أو يغنين ثم يكون ما يكون .

ويجب أن لا نُغفل من أماكن اللذة ديارات النصارى . ففي هذه الديارات ازدهرت الحياة الجنسية ، وازدهر معها الأدب الجنسي وقدّم أجمل آثاره . كانت هذه الديارات مبثوثة على شاطيء دجلة ، أو قائمة في أماكن نزهة مستطابة ، تحفّ بهـا الأزهار والغدران ، ويحلو فيها الشراب والتبذل . وكان فيها الحسان من الراهبات والملاح من الرهبان . فكان الخلفاء والأمراء والوزراء والشعراء والمجّان يجدون فيها منطلقاً لأنفسهم وشهواتهم . وكتاب الديارات للشابشتي أحسن وثيقة تدل على ذلك . وكان هؤلاء جميعاً يجدون هناك كل ما يشتهون من خمر أو طعام ، وكانوا يحملون معهم غلمانهم وقيانهم .

وكانت الحرية تخيّم على هذه الأماكن كلها ، فيتكلّـم قاصدوها بمـا يشاؤن بلا خوف ، وكانت أحاديثهم كلها تدور حول النساء أو الغلمان ، وحول أعضاء المرأة الخفية والظاهرة ، أو أرداف الغلمان وشفاههم ، أو المغامرات التي تجري لاقتناص اللذائـذ الجنسية والسعي وراءها .

وكانت ثمرات هذه الأحاديث أشعاراً جنسية حلوة رقيقة ، ونوادر طيبة مستملحة ، قد لا تخلو بعض الأحايين من ألفاظ فاحشة أو أقوال صريحة بشعة .

* * *

هناك طائفتان تمثلان الانهماك في اللذات في هذا العصر أحسن تمثيل ، وينعكس في سيرتهما تألّق الحياة الجنسية : هما الخلفاء والشعراء .

أما الخلفاء العباسيون فقد سبقوا الأمويين في الفحش وإرتياد اللذات أشواطاً بعيدة . حتى إن الأمويين ليُعدّون اتقياء بجانب العباسيين المتهتكين الفاسقين الذين كانت قصورهم أخصب بيئة لكل ما يتعلق بالجنس . لقد انطلقوا وراء شهواتهم وتفننوا في ذواق اللذات . كان النخاسون ياتون إليهم بالجواري من بلاد الدنيا يعرضونهنّ عليهم . فكانوا يشترون ما يروق لهم منهن . فكان يكون في القصر مئات ومئات من الجواري ، من كل بلد ، كل واحدة ضرب من الجمال . وكثيراً ما كان هؤلاء الجواري يتشوّقن للنكاح لكثرتهن وعدم وصول الخليفة إليهن جميعاً في مدد متقاربة . فكن يعبّرن عن اشتياقهن إلى الحب والنكاح في أحاديثهن الخاصة وأغانيهن . وإلى جانب الجواري ، كانت القصور تعج بالغلمان ، المصدر الثاني للذة . لقد كان عند هؤلاء كل ما يثير الشهوة ، ويطفئها . فلا عجب إن عبّوا منها حتى ارتووا . لقد كان لكل خليفة من القيان والغلمان ما يريد ، بل كان منهن من يعتدي أيضاً على الحرائر يريد اغتصابهن .

ذكروا أن المهـــدي بلغه أن عونة بنت أبي عون رائعة الجمال فاشتهاها . ودفع زوجته الخيزران أن تدعوها إلى الحمام عندها ، فدعتْها . فلما تعرّتْ ، دخل عليها المهدي يريد نكاحها . فتمنّعت وصاحت ، وأقسمت أن تهشم وجهه إذا اقترب منها . وهـذا عجيب من خليفة كان بين يديه مئات الجواري .

وقد ذهب هذا الخليفة أخيراً ضحية تنافس الحظايا عليه . فقـد كان له حظيتان : طلّة وحسنة . فأرادت الواحدة أن تسمّ الأخرى لتنفرد بالخليفة . فصنعت لها حلوى مسمومة . فأكلها هو فمات . فكانت تقول : أردتُ الإنفراد بك فأوحشتُ نفسي منك .

وكان الرشيد محاطاً بالجواري يـلذ بهن ، واشتهر عشقه لثلاث منهن هن : سحر ، وضياء ، وخنث . كما شُهر بحبه لهيلانة البزنطية التي كانت من أسرى مدينة هِرقلة في بزنطية . فبنى لها مغنىً صغيراً في شمال الرقة في سورية وسماه هرقلة ، ليلهو بها فيه .

وكان يجري بينه وبينهن أسئلة كثيرة ونوادر جنسيّة . سأل مرّة جاريته سرور : فقال : سرور يا سرور ! ما تحب النساء من الرجال ؟ قالت : سخونة الماء ، وقوّة الباه ، وطيب النكهة .

وُعرضت عليـه جارية مغنيـة زعمت أنها تحفظ القرآن . فتبسّم الرشيد في وجهها وقال : في أيّ سورة : (فاستغلظ فاستوى) ؟
فحلّت الجارية سراويلها وقالت : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) .

وتزوج مراجلَ الجارية فأتت له بالمأمون ، وزُبيدة فأتت له بالأمين ، وماردة فأتت له بالمعتصم . وكان منهمكاً على اللذات محباً للقيان .

ولم يكن الأمين بالبعيد عن اللذات . فقد أفسدَهُ حاشية أبيه ومؤدبوه . فلما شب مال إلى الغلمان وصدف عن النساء . فأرسل في طلب الغلمان من كل مكان . وحاولت أمه زبيدة أن توقفه عن هواه فأتت له بالجواري المقدودات وجعلت منهن غلاميّات ، بعد أن قصّت شعورهن وبرّزت أردافهن ، ليوافقن هواه . فضم الغلمان إلى الغلاميات وملأ بهم قصره وتمتع بهم جميعاً . وقد اشتهر حبه لغلامه كوثر ، وله فيه شعر سخيف ذكره الخطيب البغدادي .

أما المأمون فكان أشغف خلق الله بالنساء وأشدهم ميلاً إليهن ، كان له مائتا جارية لفراشه ، ثم مال إلى الغلمان بعد اتصال يحيى بن أكثم به . وكان يحيى هذا قاضياً بالبصرة في أيامه . وكان يرى أن الغلام إذا كان ملك اليمين حلّ التمتع به . فرفع أهل البصرة إلى المأمون أنه أفسد أولادهم بكثرة اللواط . فقال المأمون : لو طعنوا عليه في أحكامه قبلتُ ذلك منهم . قالوا : يا أمير المؤمنين ! قد ظهرت منه الفواحش وارتكاب الكبائر واستفاض ذلك منه ، وقد قال في صفة الغلمان وطبقاتهم ومراتبهم .

قال المأمون : وما الذي قال ؟

فقيل له :

أربعةٌ تفتنُ ألحاظُـهم | فعينُ مَنْ تعشقُهمساهرهْ
فواحدٌ دنياه في وجهه | منافقٌ ليس له آخره
وآخَـرُ دنياه مقبوحةٌ | من خلفه آخرة وافره
وثالث قد حاز كلتيهما | قد جمع الدنيا مع الآخره

ويقصد بالآخرة أرداف الغلام .

ثم اتصل يحيى بالمأمون ، وصار يحدّثه هو نفسه عن حبه الغلمان وما مـــرّ به معهم من حوادث . وكان لديه ، على قول المسعودي ، أربعة مئـة غلام أمرد حسان الوجوه . وكان يسمى « ألوط قاض في العراق » .

أما المعتصم فقد مال إلى الغلمان الأتراك وملأ بهم قصوره ، وفضّلهم على الناس جميعاً ، وكان له غلام اسمه عجيب ، شغف بـه ، وقال بـه شعراً . وكان وهو أمير يخلو مع أخيه المأمون وهو خليفة بالجواري ويستلذان بهن .

أما المتوكل فلعله جمع من السراري ما لم يجمعه خليفة قط قبـله ولا بعـده . يذكر المسعودي أنـه كان له أربـع آلاف سرية وطئهنّ كلّـهن . وقـد كانت أيامه في حسنها ونضارتها ورفاهية العيش فيها ، أيام سَرّاء . والرفاهية داعية الحب الجنسي واللذة . وقد قيل إن أيامه كانت أحسن من أماني الحب وأيام الشباب . وعمر قصوراً كثيرة فاخرة ،

وملأها كلها بالحسان من الجواري من كل قطر . فكانت قصوره بما فيها من الترف والبذخ ، وما أحاط بها من بساتين ، ورياض ، وما امتلأت به من أجمل النساء وأملح الغلمان ، جنة من الجنان . فلذّ ولها . وظل يحب النساء والجماع بعد أن كبُر وصار لا يستطيع الحركة مع المرأة ولا الرهز . فصنعوا له بحيرة من زئبق كان يُجامع فوقها ، تاركاً الزئبق يحرّكه ويهزّه .

ورغم ذلك كله ، لم يخلُ المتوكل من ميلٍ إلى الغلمان . وقد عشق غلامه شاهك ، وله فيه شعر .

وكان المعتضد يعشق النكاح ويُفرط فيه . حتى انه تغيّر مزاجه في آخر أمره لإفراطه في النكاح . ومات وعمره ست وأربعون سنة . وكان يحب جارية اسمها دُريرة . وبنى في أحد قصوره بحيرة كبيرة غرم عليها ستين الف دينار ، كان يخلو فيها مع جواريه ، ومنهن دُريرة ، فقال ابن بسّام الشاعر :

تركَ الناسَ بحِيره وتخلّى في البُحيْرَهْ
قاعداً يضربُ بالطبْل على حـــرّ دُرَيْـرَه

ومع شغفه بالجواري كان له غلام يهواه اسمه بدر .

ولم يخل سائر الخلفاء العباسيين من جارية أو غلام ، حتى إن بعض القهرمانات تعدّين حدودهن وأصبحن يدبرن المملكة ويصدر الخلفاء عن أمرهنّ .

وعلى الجملة فقد كان الخلفاء العباسيون رمزاً للتهالك على اللذائذ ، وتيسير أمورها ، ونشرها ، والتفنّن بها . ولعـــل لهم الأثر الكبير في انتشارها بين الناس أيضاً ، فإنما الناس ، أغلب الأحيان ، على دين ملوكهم .

* * *

وكان يقع للخلفاء حوادث جنسية وغزلية مع جواريهم أو غلمانهم فيخرجون للشعراء الذين على بابهم ويطلبون منهم أن يقولوا شعراً عما في نفوسهم أو ما وقع لهم . ويبـدو أنه لم يكن من الصعب على الشعراء أن يعرفوا ما جرى ، فالخليفة نفسه كان تراقبه عيون آلاف من الجواري كل واحدة تريد أن يكون معها . فمن ذلك أن المهدي اطلع يوماً على جارية له وهي عُريانة تغتسل . فأحسّت به ، فضمّت فخذيها وسترت متاعها بكفيْها فلم تشملاه ، حتى انثنت فسترته بعكن بطنها لعظمه وكبره . فخرج المهـديّ مسروراً ضاحكاً لما رأى . فوجد بشار بن بُرد في الدار ، فقال له : أجز هذا البيت :

أبصرتْ عيْني لحيني منظراً وافق شيني

فقال بشّار :

سَتَرَتْـهُ إذْ رأتني تحتَ بطنِ الراحتيْن
فبدتْ منه فُضولٌ لم تُوَارَ (ى) باليدين
فانْثَنَتْ حتى توارى بين طيّ العكنتين

فقال المهدي : والله ما أنت إلا ساحر ، ولولا أنك أعمى لضربتُ عنقك .

وروى عن الرشيد قصة مشابهة ، فيُقال إنه دخل مقصورة جارية له يُقال لها الخيزرانة على حين غفلة فرآها عُريانة تغتسل . فلما رأته استحت فتجلّلتُ بشعرها ، فسبل على بدنها حتى لم يبن من جسدها شيء . فأُعجب الرشيد بما رأى ، وخرج إلى مجلسه فدعا الشعراء ، وسألهم أن يقولوا شعراً عما في نفسه ، وكان في الشعراء أبو نواس فقال :

نَفَتْ عنها القميصَ لصبِّ ماءٍ
فوَرَّدَ وجْهَها ماءُ الحياءِ

وقابلتِ الهواءَ وقد تعرّت
بمعتدلٍ أرقَّ من الهواءِ

فلما أنْ قَضَتْ وَطَراً وهَمّتْ
على عَجَلٍ لتأخذَ بالرداءِ

رأتْ شَخْصَ الرقيبِ على التداني
فاسْبَلَتِ الظلامَ على الضياءِ

وغاب الصبحُ منها تحت ليلٍ
وظلَّ الماءُ يجري فوق ماءِ

فسُرّ الرشيد بما قال أبو نواس وطرب له .

ولا شك أن الصورة التي قدمها أبو نواس حلوة فاتنة ، وما ندري كيف عرف ما في نفس الخليفة ، فعرضه هذا العرض الجميل .

ويُقال إن إحدى جواري الرشيد خرجت من الحمام فنظرت في المرآة ، فاستحسنت وجهها ، فكتبت على الحائط :

أنا التفّاحةُ الحمرا عليها الطَلُّ مرشوشُ

فمرّ أبو نواس ، فكتب تحتها :

بفرجٍ عرضُه شِبْرٌ عليه العِهْنُ منفوشُ

ويقولون إن الأمين كان يطوف في قصره ليلاً ، فمـــرّ بجارية سكرى ، وعليها كساء خز تسحب أذياله . فراودها عن نفسها فتمنعت وقالت : يا أمير المؤمنين ، أنا على ما ترى ، ولكن إذا كان الغد ، .. فلما كان الغد مضى إليها فقالت : يا أمير المؤمنين ! أما علمت أن كلام الليل يمحوه النهار ؟ تريد بذلك إثارة شغفه . فضحك وخرج إلى مجلسه ، فقال : مَنْ بالباب من الشعراء ؟ فقيل مُصعب والرقاشي وأبو نواس . فقال : ليقل كل واحد منكم شعراً آخر « كلام الليل يمحوه النهار » . فقال أبو نواس :

وخودٍ أقبلتْ في القصر سكرى
ولكن زَيّن السكرَ الوقارُ

وهز المشيُ أردافاً ثِقالاً
وغُصْناً فيه رُمّانٌ صِغارُ
وقد سقط الردا عن منكبيْها
من التجميشِ وانحّلَ الإزارُ
فقلتُ الوعدَ سيدتي ، فقالت :
كلامُ الليـــل يمحوه النهارُ

فكافاه الأمين على هذا الوصف المثير الذي قارب الحقيقة ، بل كان أحلى من الحقيقة .

وفي كتب الأدب أخبار كثيرة مثل هذه تنسب للمتوكل والواثق والمعتضد ، قد تكون صحيحة أو موضوعة ، لكنها تمثل ميول الخلفاء أحسن تمثيل .

***

والفئة الثانية التي ظهرت في سيرتهم وأشعارهم الشهوة الجنسية والتهالك عليها ، هي الشعراء الخلعاء . وكان أكثر هؤلاء من أصل فارسي ، وكانوا على قول طه حسين : لا يستترون في معصية ولا يكفّون عن فاحشة ، ويتنقلون بمعاصيهم وآثامهم بين بغداد والكرخ والبصرة والكوفة والرقة ، يأخذون اللذة حيث وجدوها . وكانوا أثناء ذلك كله يقولون الشعر ويصفون اللذات الجنسيّة ، ويزينون الاقبال عليها .

كان على رأس هؤلاء الشعراء والبة بن الحباب معلّم أبي نواس . وهو الذي أفسد أبا نواس وخرّجه . وكان له في المجون والفتك والخلاعة

ما ليس لأحد. وقد جهر في شعره بلذاته الجنسية وميله إلى الغلمان. وكان يقول: إني امرؤ أنكح جلاّسي. وكان إذا شرب وطرب حنت نفسه إلى اللواط:

أقول له على طربٍ ألطني　　ولو بمؤآجر عِلْج نباطي

وتبعه أبو نواس. ولا نذكر هنا إلا مغامراته الجنسية وعبثه بالغلمان والنساء الماجنات من القيان. ولا شك أن أبا نواس ذاق من اللذات الجنسية على اختلاف ضروبها، المألوف والشاذ منها، ما لم يذق غيره. وتحدث عن ذلك كله في شعره حديثاً مكشوفاً لم يثنه حياء. فقص علينا كيف كان يأوى إلى خمارات اليهود، يشرب مع غلمان حسان الوجوه، فيعرّيهم من ثيابهم ويجلس بينهم، يقبّل هذا، ويلمس بيده ردف ذاك، ويُنادم الثالث، ثم يعود إلى عضّ الرابع.

وذكر كيف كان يغوي الغلمان، ويطاردهم في الدور والقصور والحانات والطرق. وكيف كان يأتي النساء من خلف، أو كيف كان يلتذ هو نفسه من خلف ومن قدّام. ويصف لنا كيف كان يسلّط الغلمان على القينات ثم يأتي الغلمان وهم فوقهن. أو كيف كان يجعل الجارية فوق صدر الغلام ثم ينالها. أو كيف كان يُغري غلامين بالبدال فيلوط أحدهما الآخر ويجلس ينظر إليهما، وكيف كان يصطاد الرسل المرسلة إليه، وديوان شعره المخطوط الكامل، وكتاب أخبار أبي نواس لأبي هفان، وكتاب غاية الشهوات ومجمع اللذات، مملوءة بهذه الأخبار،

وهي تدلّ على شخصيّة أبي نواس الشاذة المريضة التي تجد اللذة كلها في الخمر وفي الجسم . وتظهر براعة أبي نواس في وصف الغلمان واضحة . فلم يجاره به أحد ، حتى شعراء القرن السابع والثامن الذين اولعوا بالغلمان وأفردوا لأوصافهم الدواوين . ووصف أبي نواس حسّي تقطر منه الشهوة ، ويؤلّف قسماً كبيراً من الأدب الجنسي عند العرب .

وبرع الحسين بن الضحاك في وصف لذاته الجنسية مع الغلمان أيضاً . وكان عاش في القصر أيام الأمين والمعتصم والواثق والمتوكل . على أنه كان في وصفه أقل استهتاراً من أبي نواس . يقول مثلاً في ليلة قضاها مع غلام :

سقياً لليْلٍ أفنيْتُ مدّته
ببارِدِ الريقِ طيّبِ النّسَمِ
أبيضَ ، مُرْتجّةٍ روادفُه
ما عيبَ من فَرْقٍ إلى القدمِ
أباحني نفسه ووسّدني
يُمنى يديْه وبات مُلتزمي

يقول طه حسين : إنه يأخذ في تفصيل لذته متبسّطاً ، وإذا هو يدنو من الفحش قليلاً قليلاً ، حتى إذا لم يبق بينه وبين بلوغه إلا قيد اصبع انصرف عنه وقد ألمّ به إلماماً وخيّله إليك تخيلاً .

وكانت هناك رفقة من الشعراء الخلعاء كمطيع بن اياس ، ويحيى ابن زياد ، وحمّاد عجرد ، وحماد الراوية ، كانوا على منهج واحـد في الخلاعة وطلب اللذة الجنسية . كانوا يشربون ويلذون . وقد وصفوا مغامراتهم مع النساء ومع الغلمان في شعرهم . سكروا مرّة ، وخطرت ببالهم الصلاة وهم سكارى . فقالوا : ويحكم ما صلّينا منذ ثلاثة أيام ، فقوموا بنا نصّلي . فقام مطيع فأذّن وأقام الصلاة ، وقال للمغنية التي معهم : تقدّمي فصلّي بنا . فتقدّمت وكانت بلا سراويل ، وعليها غلالة رقيقة . فلما سجدت انكشف متاعها . فوثب إليه مطيع وقبّله وقال في ذلك شعراً .

هكذا كانوا يقضون أوقاتهم ، ويقولون شعرهم . وأخبار هؤلاء كثيرة في هذا الباب ، لا محل لذكرها هنا . ومغامرة مطيع ويحيى بن زياد مع ابن أبي الأصبغ من أمتع المغامرات الجنسية ، ذكرها الشابشتي في كتاب الديارات .

وقـــد عاصر هؤلاء أو سبق بعضهم بقليل بشّار . وبشّار كان صاحب مذهب مختلف عن مذهب والبة في تصوير اللذات . كان والبة ومن تبعه من مدرسته يصوّرون اللذات نفسها ، أما بشّار فكان لا يصفها الوصف المكشوف بل يزّينها للنساء ويُغري بها . وكان بشار مولعاً بالنساء مبالغاً في الميل إليهن ، على نقيض تلك المدرسة . وكان شعره يمثل التهالك على اللذة الجنسية التي تقـدمها المرأة ، يدعو النساء إلى إعطائها بأعذب الألفاظ وأيسرها ، وأدناها ، وأكثرها شيوعاً . فكان

شعره يدخل القلب ، وكانت النساء تردّده ، حتى إنه لم يكن في البصرة غَزِلٌ ولا غَزِلة إلا يروي شعر بشّار . فخشي الناس من خَطَرِ شعره ، وشكوه للخليفة . وقصيدته الرائية التي يقصّ فيها مغامرته مع فتاه من أبرع الشعر الجنسي وأحلاه ، ليس فيه الفحش الذي نجده عند والبة وأبي نواس . يصوّر فيه كيف يغري الفتاة فتفور اللذة في جسمها وتستسلم . وأول هذه القصيدة .

قد لامني في خليلتي عُمَرُ
واللومُ في كنهه ضَجَرُ

وفيها يقول :

حَسْبي وحسْبُ التي كَلِفتُ بها
مني ومنها الحديثُ والنَظَرُ
أو قُبلةٌ في خِلال ذاك ولا
باسَ إذا لم تُحَلّلِ الأُزُرُ
أو لمسُ ما تحت مِرْطِها بيدي
والبابُ قد حال دونه السُتُرُ
والساق برّاقةٌ خلاخِلُها
والصوتُ عالٍ فقد علا البُهُرُ
واسترختِ الكفُّ للغِزالِ وقا
لت : الْهُ عني ، والدمعُ مُنحدرُ

اذهبْ فما أنتَ كالذي ذكروا
أنتَ وربّي مُغـازلٌ أشِرُ

يا ربِّ خُذْ لي فقد ترى ضُعْفي
من فاسق الكفِّ ما له شُكُرُ

أهوى إلى مِعْضَدي فرضّضَه
ذو قوةٍ ما يُطاق ، مُقْتـدِرُ

كيف بأمّي إذا رأتْ شفتي
وكيف إنْ شاع منكَ ذا الخبرُ

(الديوان ١٧١/٣)

وأبيات بشّار التي يدعو فيها إلى ملاحقة النساء ، والابتعاد عن اليأس إذا أغلظن القول ، مشهورة جداً تكاد تقيم مذهباً في هـذا الباب ، يقول :

لا يؤئسنّك من مخبّـأةٍ
قولٌ تغلّظه وإن جَرَحا

عُسْرُ النساءِ إلى مياسرةٍ
والصعبُ يمكن بعدما جمحا

فكأنه يقول إن المرأة ، مـا دام فيها تلك الرغبة الجنسية ، فإنها لا بُدَّ أن تذعن مهما تمنّعت أو أغلظت في القول ، فيعود عسرها يسراً

وصعوبتها سهولة . وقد قال المهدي عندما سمع هذه الأبيات : يا فاسق ! رميْت نساء المسلمين جميعاً بالفجور ، وسهّلت لكل فاجر إليه السبيل .

والحق أن شعر بشّار أغرى باللذة الجنسية ودعا إليها ، فهو يشبه عمر بن أبي ربيعة ومدرسته في هذا الباب . ولقد كان شعره خطراً ، لأنك لا تجد فيه ما تشمئز منه النفس من ألفاظ نابية أو فحش واضح . وكم ردد الرجال والنساء في عصره قوله :

قالوا حرامٌ تلاقينا ، لقد كذبوا
ما في التزام ولا في قُبلةٍ حَرَجُ !

ولقد بلغت الوقاحة في الانهماك على اللذات حدّاً بعيداً من الاستهتار حتى كان أبو الشيص يقول :

أصيبُ الذنوبَ ولا أتّقى
عقوبةَ ما يكتب الكاتبان !

وينبغي أن لا نغفل شعراء الديارات . فلقد ذكرنا أنّ ديارات النصارى كانت أماكن مستطابة للذائذ الجنسية . وكان يقصدها شعراء كثيرون اختصوا بها ، كأبي جفنة القرشي ، وعمرو بن عبد الملك الورّاق ، ومصعب الكاتب ، والعبادي ، والثرواني الكوفي . وكانوا جميعاً من عُشاق الغلمان المُرد . فوصفوا مغامراتهم معهم في الديارات بصراحة . ولا مكان لسرد كلّ ما قالوا وما فعلوا . ونحيل القارىء إلى كتابنا « بين الخلفاء والخلعاء » وإلى كتاب

الديارات ، ففيهما صورة عن هؤلاء الشعراء وما كانوا يفعلونه في تلك الديارات .

ولم يخل شعر ابن الرومي من أدب جنسي . وصف زنجية وصفاً جنسياً دقيقاً ، وأطنب في وصف فرجها وتوقده وطيبه ، وأشار إلى عضو الرجل وتهالك النساء عليه فقال :

لو يستطعْن أكَلْنَهُ من شهوةٍ وشربْنَه
أعْظَمْنَه فدَعوْنَه ربّاً ولو صحّفْنه

ويمدنا طبقات ابن المعتز بأسماء شعراء آخرين انصرفوا إلى اللذات الجنسية مثل جحشويه - وكان - على قول ابن المعتز - من ألوط الناس ، ينسب نفسه إلى البغاء . وله شعر جنسي مخيف . ومثل أبي حكيمة الذي كان يصف نفسه بالعنّة والعجز ، ويرثى عضوه الخفيّ ، ولكنه كان يثب على كل من لقيه حتى قيل إنه يقصر عنه التيس . وكان له شعر كثير في رثاء عضوه ووصفه ، كان منتشراً بين الناس . وكان يقول : هذا فن تفرّدتُ به من دون الخلق . وكمحمد بن حازم الباهليّ الذي تحدّث عن وصف الجماع مع القيان . وكالرقاشي الذي نظم ارجوزة طويلة جعلها وصيّته ، وأمر فيها باللواط ، وشرب الخمر ، والقمار ، والهراش بين الديكة والكلاب . وأول هذه الوصية .

أوصى الرقاشيّ إلى خلاّنه
وصية المحمود في إخوانه

إلى غير هؤلاء الشعراء ممن عُني ابن المعتز بذكرهم في طبقاته .

ونجــــد الثعالبي يُعنى بذكر طائفة من الشعراء المجّان في الشام الذين وصفوا في شعرهم المغامرات الجنسية ، كأبي الرقعمق الذي هجا الغلمان ووصف أدبارهم . وشعره لطيف عذب . وقد لهج بذكر المجون ووصف عضوه الخفيّ ، وكان في الشام كابن حجاج في العراق . وله قصيدة طويلة ينسب فيها كل ما أصابه من بلاء وفقر إلى عضوه الخفيّ . ويذكر أنه لولاه لقل اضطرابه ، ولقنع بنزرٍ من الطعام والشراب ، ولما طال انتزاحه عن بلاده واغترابه . ويشير في قصيدة أخرى أنه كان يجلد عُميرة ، ويسمي يده اليمنى بزوجته . وهو القائل :

وقد مجنتُ ، وعلّمت المجون فما
أُدعى بشيء سوى ربّ المجانات

ولا بُدّ أن نقف عند شاعرين خُتم بهما القرن الرابع هما ابن الحجّاج وابن سُكّرة . وكان يُقال : إن زماناً جاد بابن سكرة وابن الحجاج لسخيٌّ جداً . كان شعر ابن الحجاج سلس الألفاظ عذباً حلواً . وكان فيه معانٍ طريفة جديدة . خصّ قسماً كبيراً من شعره في وصف الأعضاء الخفية عند العواهر والقحاب ، ووصف الملذات الجنسية التي يقدمها الغلمان والنساء . وقد عني بوصف أماكن العهر وما يحيط بها من جو مشبع بالشهوة . وله هجاء للقِحاب فيه قذارة . وله ابتكارات في المعاني الجنسية لم يسبق إليها كقوله « بظور شمّ العرانين » . وكان

المتَّبع أن يبدأ الشعراء قصائدهم في المدح بالغزل والنسيب ليخلصوا إلى ذكر الممدوح . أما ابن الحجاج فكان يبدأ بوصف الجماع ، أو وصف أعضاء المرأة الخفيّة ليخلص منها إلى غرضه ، وله أوصاف مختلفة دقيقة لمختلف أنواع الفروج وأشكالها . وشعره الجنسي ، على عذوبته ، تشمئز منه النفس لإسفافه وقذارته . ومع ذلك كله فقد كان الكبراء في عصره يستملحون شعره ، وكان طول عمره يتحكّم على وزراء الوقت ويعيش في أكنافهم عيشة راضية . ويقول الثعالبي إن ديوان شعره ، كان أسْيَر في الآفاق من الأمثال .

أما ابن سُكّرة فقد جرى أيضاً في ميدان المجون والسخف ، ووصف في شعره مغامراته مع الغلمان ، وشعره عذب :

مرّ لي في العمر يوم
لا أجازيه بشكر
بين غزلان النصارى
أمزج الريق بخمر

ونجد في شعره أوصافاً لأعضاء القيان الخفية . وخصّ عشرة آلاف بيت من شعره في وصف قينة سوداء اسمها خمرة ، أحبها ثم هجاها كثيراً .

فهؤلاء الشعراء الذين ذكرناهم جميعاً ، وغيرهم ممن لم نذكرهم يمثّلون التهالك على الجنس ، والفناء فيه ، أحسن تمثيل . لقد كانوا ، هم والخلفاء ،

مبرّزين في هذا الباب ، لم يمنعهم مانع ، ولم يحل بينهم وبين ما يريدون فعله أو قوله حائل .

***

وبينما كانت اللذة الجنسية هي الهدف الأول من المرأة ومن الحب في المدن المتحضّرة ، كان فئة من أعراب البادية لايزالون يُحافظون على عذرية الحب وطهارته . ولعلّ حديثاً جرى بين الأصمعي وامرأة من بني عُذرة يوضح هذا التباين في مفهوم الحب . فقد سأل الأصمعيّ امرأة عذرية فقال لها : أنتم أهل العشق ! فما هو العشق ؟

قالت : الغمزة ، والقبلة ، والضّمة ، فما هو عندكم يا حَضَري ؟

فقال : أن يرفع رجليْها ، ويدفع بجهده بين شفريْها .

وقد جرت محاورة بين أعرابي وحضري عن معنى الحب أيضاً .

سأل حضري اعرابياً : ما الحب ؟

قال : عناقُ الحبيب ، ولثم الثغر الشنيب ، والأخذ من الحديث بنصيب .

فقال الحضري : ما هكذا نعدّه فينا . إنه القعْس الشديد ، والجمع بين الركبة والوريد ...

فأنت ترى من هاذين المثالين أنّ الحب في المدن أصبح يبتغي اللذة الجنسية وإتيان المرأة ، في حين كان في البادية ، وعند فئة من الأعراب ،

يهدف إلى أقل من ذلك ، ويقنع بالغمزة والقبلة ، والحديث . كان الحب روحانياً يبغي لذة الروح قبل لذة الجسم . لكن الغمزة والقبلة والحديث أصبح كل أولئك أموراً لا شأن لها في المدن .

على أن اللذة الجنسية التي طغت على أهل المدن جميعاً ، فهاموا وراءها ونالوا منها ، كل حسب طاقته وبيئته ، ما لبث أن انتقلت إلى البادية أيضاً ، فافسدت الحب العذري ، وأفسدت كل ما كان يصيب الروح من نُعميات الحب وأحزانه .

قيل لأعرابي : ما بالُ الحبُ اليوم على غير ما ما كان اليوم ؟

قال : نعم . كان الحب في القلب فانتقل إلى المعدة . كان الرجل يحب المرأة ، يطيف بدارها حولاً ، ويفرح إن رأى منْ رآها ، وإن ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار . وإنّه اليوم يشير إليها وتشير إليه ، ويعدُها وتَعدُه . فإذا اجتمعا لم يشكوا حباً ، ولم ينشدا شعراً ، ولكن يرفع رجليها ويطلب الولد . وفي رواية أخرى : قام إليها كأنه أشهد أبا هريرة على نكاحها . (ذم الهوى ٣٢١) .

ولعلّ الشاعر المجهول عبّر عن تطوّر معنى الحب وغايته فقال :

شفاءُ الحب تقبيـــلٌ ولمسٌ
وسَبْحٌ بالبطون على البطونِ
ورَهْزٌ تذرف العينان منه
وأخْذٌ بالذوائب والقرونِ

وقد ذكروا أن جاريةً مدنيّة ظريفة باتت عند صاحبها يمصّها ويقبّلها . فقالت له : يا مولاي ! أما سمعتَ ما قاله أبو نواس :

حــدّثنا بعضُ قضاة الهوى
عن شيخه ، عن جدّه ، عن شريك
لا يشتفي المشتاقُ ممــا بـه
بالضمّ والتقبيل حتى ينيـ ...

قال : لا أحفظه ، ولكن أتقبّلهُ ، فإنّـه من شيوخنا .

وبلغت موجةُ المجون والعبث الباديةَ بعد ذلك ، فصارت النساء فيها يقمن بمغامرات فيها جرأة ومجون وحرية . لكنهنّ كنّ محافظات على عفافهنّ .

حُكي عن أبي نواس أنه حجّ . فمرّ في أرض بني فزارة في أوان الربيع ، مع زميل له . فرأى خياماً فقصدها . فإذا على باب الخبـاء فتاة متبرقعـــة . فاستقاها مـاء هو وصاحبه ، فسقتْهما . فانشد أبو نواس :

إذا بارك الله في مَلْبَسٍ
فلا باركَ اللهُ في البرقُــع
يريكَ عيونَ الدُمّى غــرّة
ويكشف من منظــرٍ أشنَعِ

فغاظها قوله ، فنزعت البرقع ، فإذا وجهها كالبـــدْر : ثم عرّضا بجسمها ، فغاظها ذلك . فنزعت ثيابها حتى بلغت نحرها . قال أبو نواس : فإذا قضيبُ فضّة قد حُشي بماء الذهب ، يهتزّ على مثل كثيب النقا . وصدرٍ كالمرأة عليه ثدييّن كرمّانتين ، وخصر لو رمت عقده لا نعقد ، وسرّة مستديرة يقصر فهمي عن بلوغ وصفها ، وبطنٍ أبيض مستوٍ من تحته أرنبٌ جاثم له جبهة ليث خادر ، وفخذان لفّاوان ، وساقان خدلجّتان يُخرسان الخلاخيل ، وقــدمان كأنهما لسانان ، تهتز على كفل رجراج .

فقالت : أعاراً ترى لا أبا لك ؟

وهكذا أُوتيت هذا المرأة من الجرأة ما دفعها أن تتعرّى وتُظهر محاسن جسمها الخفيّة والظاهرة ، لأن أبا نواس عرّض بأنه قد يكون تحت الثياب جسم غير جميل .

وانصرف أبو نواس إلى الحج وعاد . فمرّ بخيمة الحسناء ، فابصرها بين خمسة من صواحبها كلّهن حِسان . فتحدث وتحدث معه . فسأل صاحبته الوصال وقال : أريـد تبريد غلّة وإطفاء لوعـة . وطلبت صاحبة لها منها أن تسعف طلبه . فضربوا على باب مغارة مجاورة ازاراً وأمرته بالدخول لتلحق به فينال منها ما يريد . قال : فجلستُ ساعة وأنا متشوّق لواحدة منهن . وإذا بأسود داخل عليّ ، وبيـده هراوة ، قابضاً بيده الأخرى على ذكَره ، وهو منعظ ، قائم ، مشتد .

فقلتُ : ويحك ! ماذا تريد ؟

فقال : أنا لك بهذا ...

ثم تقدّم مني وقبضني ، وأراد يرميني ويقضي وطره مني . فخفتُ وصحت بصاحبي . فجاء فاعانني وخلّصني ، ثم خرجت من الغار ، وإذا بتلك الحِسان يتهاوَيْن إلى خيامهن وهن يتضاحكن .

فقلتُ لصاحبي : من أين أتى الأسود ؟

قال : كان يرعى غنماً إلى جانب الغار ، فَدَعَوْنَه ، وَوَسْوَسْنَ إليه شيئاً ، فدخل عليك .

فانظر هذه الجرأة من أبي نواس أن يطلب من الفتاة أن يتمتّع بها ، وكيف عبثت به وأرسلت إليه من يفعل به الفاحشة . كل هذا يدّل أن البادية قد صابها ما صاب المدن من الحرية في التحدث عن عن الأمور الجنسية ، وتطلبها ، وإتيانها أحياناً .

وروى الأصمعي قصة تدل على عكس ذلك ، رواها الجاحظ في المحاسن والأضداد قال :

خرجتُ إلى بادية فاذا أنا بخباءٍ فيه امرأةٌ ، فدنوْتُ فسَلّمتُ ، فإذا هي أحسنُ الناس وجهاً ، وأعدلهم قامة ، وأفصحهم لساناً . فحار فيها بصري ، واعترتني خجلة ، فقالت : ما وقوفك ؟ فقلت :

هل عندكم من مَخيضِ اليوم نشربُه
أم هل سبيلٍ إلى تقبيل عينَيْكِ

أو تأذنين بريقِ منك أرشُفه
أو لمسِ بطنِك أو تَغميزِ ثديَيْك
رُدّي الجوابَ على مَنْ زَاده كَلَفاً
تكريرُه الطَرْفَ في أَجدالِ ساقَيْكِ

فرفعت رأسها وقالت : يا شيخ ! ألا تستحي ؟ ارجِع إلى أهلك وارغب في مثل ذلك .

* * *

وقد أدّى إقبال النساء في المدن على اللذات ، إلى اساءة الظنّ بهن ، عامةً . فظهر في القصص الشعبي ، كألف ليلة وليلة مثلاً ، أقاصيص كثيرة تدعو إلى عدم الثقة بالنساء ، وتُبيّن مكرهنَّ وخبثهن وحيلهنَّ في سبيل التمتع باللذات بالحرام . فما قيل من شعر الف ليلة (٤/١) :

لا تأمنَنَّ إلى النسا	ءِ ولا تثقْ بعهودهنّ
فرضاؤهنَّ وسُخطهنّ	مُعلّقٌ بفروجهـــنّ
يُبديـْنَ وُدّاً كاذباً	والغدرُ حشوُ ثيابهنّ

* * *

واهتم فقهاء المذاهب الخمسة أيضاً ، بالأمور الجنسيّة وبيّنوا الكثير من أحكامها . وهـذا مبحث واسع جداً يستحق أن يُفرد له كتاب

خاص ، وإنما أردنا أن ننوّه هنا ببعض الأمور الجنسية التي بحثها الفقهاء ، إتماماً لبحثنا الشامل .

فمن هذه الأمور :

١ ـ ذكر القرطبي (١٢/١٠٧) عند الكلام على قوله تعالى (والذين هم لفروجهن حافظون) من سوره « المؤمنون » ، قول الفقهاء أن الرجل إذا ملك أمَة ، يستطيع أن يطأها ، لكنّ المرأة إذا اشترت غلاماً فملكته وأرادت أن تتسرّر به ـ أي أن يطأها ـ لم يجز ذلك .

٢ ـ وذكر أن الناس ـ أي الفقهاء ـ اختلفوا في جواز نظر الرجل إلى فرج المرأة على قولين . أحدهما يجوز ، لأنه إذا جاز له التلذّذ به ، فالنظر أولى .

وقيل : لا يجوز ، لقول عائشة رضي الله عنها في ذكر حالها مع رسول الله ﷺ : ما رأيتُ ذلك منه ، ولا رأى ذلك مني .

قال القرطبي : والأول أصح . وهذا ـ أي الثاني ـ محمولٌ على الأدب .

قال ابن العربي : وقد قال أصْبَغُ من علمائنا : يجوز له أن يلحسه بلسانه .

وقال ابن خُوَيْزَ منداد : أما الزوج والسيّد فيجوز له أن ينظر

إلى سائر الجسد ، وظاهر الفرج دون باطنه ، وكذلك المرأة يجوز أن تنظر إلى عورة زوجها ، والأمَـةُ إلى عورة سيّدها[1] . (تفسير القرطبي ١٢/٢٣١ ـ ٢٣٢) .

٣ ـ لا بأس بالاستمناء للاستعفاف . وقد كان الغزاة يستمنون . وقال عمرو بن دينار : ما أرى بالاستمناء بأساً . وذهب الحنابلة إلى أنه من استمنى بيده خوفاً من الزنا ، أو خوفاً على بدنه ، فلا شيء عليه . يعني أن ذلك يُبـاح للضرورة . (موسوعة الفقـه الإسلامي ٨ / ٨٠ ـ ٨١) .

وجوّز الفقهاء أن يستمني الرجل بيد زوجته وجاريته المباحة له ، لأنه كتقبيلها (المصدر السابق) .

وقال القرطبي : وأحمـد بن حنبل على ورعه يُجوّز الاستمناء ، ويحتجّ بأنه إخراجُ فَضْلَةٍ من البدن ، فجاز عند الحاجة (١٢/١٠٥) .

وأجمعوا على أن الوطء في الدبر حرام . قال المزني في المختصر : قال الشافعي : لستُ أرخّص فيه بل أنهى عنه ، فأما التلذّذ بغير إيلاج بين الإليتين فلا بأس به . (روضة القضاة ١/٨٩٢) .

---

(١) جـاء عند قاضي خان : « لا بأس بالرجـل أن يمسّ فرج زوجتـه لكي تتحرّك . وعن أبي يوسف : سألتُ أبا حنيفة عن هذا فقال : لا بأس به» (موسوعة الفقه الإسلامي ٨/٧٩) .

والوطء في الدبر على مذهب الشيعة الإمامية جائز مع الكراهية ، قال المحقق الحلّي : الوطء في الدبر فيـــه روايتان احداها الجواز ، وهو المشهور بين الأصحاب ، لكن على كراهية شديدة (المصدر السابق ، الحاشية ٣) .

٧ ـ ومن ذلك أمر العزل ، أي أن يُجامع الرجـل المرأة لكنه لا يقذف بمائه في فرجها . فقال الشافعي : يجوز العزلُ عن المرأة دون إذنها مع الكراهة ، وقال الأئمة الثلاثة (المالـكي والحنفي والحنبلي) : لا يجوز إلا بإذنها (الميزان للشعراني ١١٨/٢) . والعزل يكون للضرورة، خوفاً من مجييء الأولاد .

وكانت أبحاث الفقهاء في هذه الأمور تهدف إلى تفهيم الناس أحكام الدين فيها ، وإرشادهم إلى الحلال والحرام ، على أثر التطوّر الاجتماعي وتأثير الحضارات الأخرى في المجتمع الإسلامي . ولا نجـد ديناً بيّن للمؤمنين جميع الأحكام المتعلقة بحياة الإنسان ، في هذه الدنيا ، ومنها الأمور الجنسية ، كالإسلام .

* * *

ويبدو أن الاهتمام بالأمور الجنسية لم يقتصر على بغـداد ، ففي جميع العالم الإسلامي كانت العناية بذلك ، وإن كانت الدعارة والفحش لم تبلغا ما بلغته في بغـداد . ويذكر الصلاح الصفدي في الوافي أنـ

مؤرخ مصر المشهور في العهد الفاطمي المسبحي المتوفى سنة ٤٢٠ هـ، ألّف كتاباً اسمه « أصناف الجماع » في الف ومائتي ورقة . فلولا أن تكون الأمور الجنسية ذات مكان بارز في المجتمع الفاطمي في القاهرة ، لما ألّف هذا المؤرخ الكبير ، مثل هذا الكتاب الضخم عن أصناف الجماع . ومن المؤسف أن لا يكون هذا الكتاب موجوداً .

* * *

وثمة مظاهر أخرى للحياة الجنسية واهتمام العرب بها ، في الحقبة التي نتحدث عنها من العصر العباسيّ .

١ ــ فمنها ما سمّوه بآداب الباه . وهي قواعد النكاح وما يُستحبّ أن يأتيه الرجل من التجمل والمباسطة والمزاح والملاعبة قبل الجماع ، وما يُستحبّ أن تأتيه المرأة من النظافة والطيب والتجمّل والزينة .

وجعلوا للمحادثة آداباً ، وللقُبل آداباً ، وللنكاح نفسه آداباً ، وبيّنوا ما يجب أن تفعله المرأة في الفراش .

وكذلك وضعوا آداباً للسحاق بيّنوا فيها كيف تكون المتساحقتان .

وهذه الآداب شملت أيضاً اللواط .

وقد كانت هذه الآداب متبعة بدقة في الطبقات الارستوقراطية الغنية ، أكثر منها في الطبقات الشعبية . ففي الطبقات الدُنيا كانت

الأمور لا تخلو من الابتذال أحياناً . وهـــذه الآداب تؤلف كتاباً قائماً بنفسه .

٢ ـ ومنها دراستهم طباع النساء ووضعهم قواعـد لاجتـذابهن وإغوائهن . وكانت هذه القواعد قائمة على تجارب كثيرة لمعرفة نفسيّة المرأة . وكانت هـذه التجارب ممـا وضعه العرب أنفسهم ، وما رآه النخّاسون الذين كانوا يأتون بالجواري ويعرفون طباعهن ، وما نقلوه عن الكتب المترجمة من الهندية والفارسية ، مثل كتاب برجان وحباحب . ففي هـذا الكتاب فصل عن أحسن الأشياء موقعاً عنـد النساء ، نقل بعضه صاحب جوامع اللذة .

٣ ـ ومنهـا تصنيف النساء بحسب أنواع فروجهن ، وطولهن ، وإنزالهن ، وما يصلح لكل واحدة منهن من الرجال ، ومن ضروب النكاح . وخصائص الطِوال والقصار ، وأن القصيرات ، مثلاً ، لذيذات النكاح أكثر من الطوال . ولاحظوا أن التوافق في الشهـوة والإنزال لا بـد له لبقاء المودّة والمحبّة . فإذا اختار الرجل المرأة دون دراسة ذلك ، ذهب ودّهما على الغالب سريعاً .

٤ ـ واهتموا بالبحث في أمور علمية جنسية بحتة ، نجـد العلماء يبحثون فيها في أيامنا . مثال ذلك : هل تنزل المرأة ماءها أو لا تنزل . وكيف تُنزل . ومتى يجتمع ماء الرجل والمرأة ، وسبب الاختلاف في

الانزال ، وكيف يكون التوافق فيه . وألحّوا على هذه النقطة الأخيرة ، وقرّروا أن الموافقة في الإنزال هي الغاية التي ليس بعدها غاية في الاتصال الجنسيّ ، وأنها سبب النجاح ودوام المحبة .

٥ ـ واستخدموا الفراسة لمعرفة الأمور الجنسية ، ليعرفوا مثلاً الرجل المحبّ البـــاه ، والقويّ على الجماع . والمرأة الشديدة الشهوة المستلذة بالنكاح . واستُنتجت من صفات وجه المرأة وفمها صفة فرجها وشكله وقَدْره . وأخذوا من نظرات المرأة ما يفسّر أحوالها النفسيّة وميلها إلى النكاح .

٦ ـ استخدموا الطب للأمور الجنسية ، وألّـفوا الكتب الكثيرة في ذلك . فعُنوا بأمر تقوية الأعضاء الخفية عند الرجل والمرأة ومداواتها مما يصيبها ، ودرسوا ما يعين عـــلى النكاح ويحبّبه وييسره ويقويه ، ووضعوا العلاجات لمنع الحبل ، وهـــذا يفسّر لنا إقبال الجواري الكبير على النكاح والبغاء بلا خوف . كما وضعوا علاجات لمداواة العقم .

وفي سبيل اقتناص اللذات الجنسية والسرعة في الوصول إليها ، وضعوا أقراصاً وحبوباً وبخوراً ، وشراباً ، وطيباً ، تُسكر أو تخدّر أو تُنيم بسرعة ، تقدّم للغلمان أو للنساء . فإذا سكرت المرأة أو الغلام وأصابهما الخدر سهل إتيانهما وبلوغ اللذة منهما .

٧ ـ ازدهرت التآليف في الأمور الجنسية ازدهاراً عجيباً ، فقد أصبح ضرورة اجتماعية . وهناك مئات من الكتب الجنسية أُلّفت في هذا العصر . وأُضيف إلى التآليف تصوير الكتب . ففي كتب النكاح صُوّرت الأوضاع المذكورة بالألوان . ونعتقد أن هذا التصوير كان من تأثير الهند . فقد كان عند العرب كتاب « الألفية » مصوّراً . والتصوير الجنسي كان معروفاً عند الهنود ، وما تزال بقاياه محفورة على الحجارة في بعض معابدهم .

وانتقل التصوير الجنسي من الكتب إلى الجواسق والحمامات . فصوّروا على جدرانها صوراً عارية في نهاية الحسن والجمال ، على هيئات وأوضاع مختلفة من مجامعة وتقبيل ومغازلة ومداعبة ، إذا نظر إليها الإنسان تحرّكت شهوته .

* * *

تلك هي الخطوط العامة للحياة الجنسية في عصر الجنس : وهي خطوط بلغت الذروة في التحلّل من جميع الموانع والقيود ، وانعكس فيها انطلاقُ الغرائز والشهوات ، والانحطاط الخلقي ، وحب الاستمتاع ، والاستهتار بالدين . جرى ذلك كله على مرأى ومسمع من الخلفاء الذين أسهم أكثرهم أيضاً في هذه الحياة القذرة التي تجاوزت المعقول ، حتى أصبحت قصورهم مواخير مُتْرَفَة تفورُ فيها

أعنف الشهوات ، وتُقتنص غرائب اللذات في ظل السلطان والتَرَف المال . فقلدتهم رعيتهم بمفاسدهم ، بالحلال والحرام .

لقد كان العصر العباسي مجنوناً بالجنس . ومن المؤسف أن العصور التالية تابعته في هـــذا الجنون[1] ، فكان ذلك من أسباب الانحـدار والتخلّف اللذين وصل إليهما العرب والمسلمون .

(١) زاد الاستهتار في بغداد فيما بعد القرن الرابع ، حتى بلغ مبلغاً لا يجارى في القـذارة والجرأة على إتيان أمور لا يتصورها عقل . وقـد قص ابن الجوزي في كتابه « ذم الهوى » بعض هذه الأمور . (انظر فيه الباب الثاني والأربعين) .

الجِنسُ في القصَص الشعْبي

رأينا كيف ظهر أثر « الجنس » في حياة الارستوقراطيين ، ومن يحيط بهم ، من الخلفاء والشعراء ، في هـذا العصر . فلنرَ كيف كان الشعب ينظر إلى أمور الجنس . وسنحاول أن ندرس هذا الأمر من خلال القصص الشعبيّ ، الذي كان يدور على أفواه النـاس في لياليهم وسمرهم ، كما كان الشعر الجنسي يدور في قصور الخلفاء وحانات الخلعاء .

والقصص الشعبي هو أحسن مرآة تنعكس فيها نفسيّة الشعب ، فيبدو فيه الكثير مما يشغله ، وما يحبه ، وما يميل إليه ، أو ما يؤثر فيه ، وما يلهج به ويردّده ، وما يكرهه ويحقد عليه ، إن فيه أحاسيسه الواضحة والخفية .

ولدينا مجموعتان كبيرتان من القصص الشعبي يمكننا الاعتماد عليهما ، في الدرجة الأولى ، لتوضيح أثر الجنس في الشعب ، هما الف ليـلة وليلة ، والحكايات العجيبة . وكلتاهما مما وُضع في أول أمره في العصر

العباسي ، من القرن الثاني إلى الرابع ، ثم أُضيف إليه أشياء أخرى في القرون التالية .

ولن نتحدث طويلاً عن ألف ليلة لانتشارها وتداولها بين أيدي الناس جميعاً . ويكفي أن ننوّه ببعض الأمور الجنسية التي نراها مصوّرة في أقاصيصها . فالحب والزواج والتمتع باللذة الجنسية بالحلال وبالحرام تشغل موضوع كثير من الأقاصيص . وفي سبيل التمتع باللذة نجد مشاهد كثيرة مغرية . فالزوجات يخنَّ أزواجهن مع عشاقهن أو عبيدهن . والفتيات العذارى يلاقين الشباب من محبيهنّ سرّاً ، وقد يستسلمن لهم قبل أن يتزوجن . والعجائز يقدْن النساء والفتيات إلى الرجال الشبان . والرجال يهجرون زوجاتهم ويسعون إلى عشيقاتهم سراً . وقد يقوم هؤلاء جميعاً بأساليب شتى للوصول إلى اللذة الجنسية : من احتيال ، وكذب ، وتخدير ، وفرار ، وغير ذلك . كما أننا نجد للشذوذ الجنسي نصيباً في بعض القصص ، كالإشارة إلى اللواط أو البغاء أو السحاق .

أما الحكايات العجيبة فهي مجموعة جديدة كان عثر عليها صديقنا شيخ المستشرقين الألمان الأستاذ ريتر في استانبول ، ثم نشرها صديقنا المستشرق الأستاذ فير . وهي في بعض قصصها أكثر غنى من قصص ألف ليلة . ويهمنا أن نعرض بشيء من التفصيل إلى بعض أقاصيصها التي كان الجنس محورها . ولن نتحدث عما كان فيه عواطف جنسية عامة سبق ذكرها في ألف ليلة .

ففي قصة « الأربعين جارية » نجـــد ابن ملك يتيـه في صحراء واسعة ، حتى يبين له قصر عالي البناء ، واسع الفناء مرتفع في الهواء . فدخل إلى القصر ، فرأى أربعين مقصورة ، في كل مقصورة سرير ، وعلى كل سرير الفُرُش الحسنة المختلفة الألوان . ووجـــد في صدر اللواوين مائدة من الذهب الأحمر عليها أربعون زبدية من الفضة البيضاء ، وبدارها أربعون رغيفاً من الخبز الأبيض . فـلم يتمالك أن تقدّم إلى الطعام فأكل من كل زبدية لقمة واحدة . ثم طلب الماء ، فوجد بجانب اللواوين بيتاً برسم الشراب ، فيه أربعون مرتبة في كل مرتبة صينية من ذهب ، فيها قنينة بلّور ، وفيها شراب أذكى من المسك ريحاً ، وإلى جانبها نقل وفاكهة . وفي الوسطى أزهار وريحان . ومجامر العود والند تعبق ولا تنقطع . فشرب من كل قنينة جرعة ..

فبينما هو كذلك إذ سمع وقع حوافر الخيل ، فنظر من الطاقـة وإذا بأربعين فارساً قـــد أقبلوا عليهم السلاح ، يتقدمهم فارس عليه ديباجة حمراء . فأسرع الفتى واختفى في زاوية القصر . فلما دخلوا وقلعوا ما عليهم من آلة الحرب ولباس الفرسان ، تبـين أنهم نساء ، أحسن من الحور العين . فأقبلن إلى مجلس الطعام ، وهو ينظر إليهن من حيث لا يرونه . فلما جَلَسْنَ رأت كل واحدة منهن رغيفاً قـد كسر ، وزبديتها نقصت . فأنكرن ذلك . ثم قلن للفتاة التي كانت تلبس الديباجة الحمراء : يا سيدة ، مـا هـــذه الآثار التي لم نعهـدها قبـل هذا اليوم ؟ فقالت لهن : أصبرن ، فإني ناظرة في هذا الأمر .

وانتقلن إلى مجلس الشراب ، وهن يملن كالأغصان ، بتلك الوجوه الحسان . فلم يزلن يتناولن الأقداح ، ويتناشدن الأشعار ، ويتذاكرن الأخبار ، حتى ذهب الليـل وأقبل النهار . فقمن إلى لباس الحديد . فقالت لهن سيدتهن :

ـ سيروا إلى ما جرت به عادتكم . فإني قـد عوّلتُ أن أختفي حتى أكشف خبر هذا الذي هجم على قصرنا وخرق حرمتنا .

ثم إنها عادت إلى مكان خفي في القصر واختبأت فيه .

أما الفتى فإنه صبر في مكانه حتى علا النهار . فخرج من مكانـه وتقدّم إلى المائدة ومدّ يده ورفع منها لقمة وهمّ أن يضعها في فمه . وإذا بالفتاة المختبئة قـد خرجت إليه ودنت منه . فلما رآها ارتعدت مفاصله ، وسقطت اللقمة من يـده فزعاً ورعباً . فلما نظرت إليه ، ورأت جميل صورته ، تقدمت إليه ، وتبسمت في وجهه ، وجلست إلى جانبه ، وأخذت تحادثه وتوانسه ، إلى أن شكا ما به ، فعانقته وقبلته ، وقالت له :

ـ يا حبيبي ! أنت انسي أم جني ؟

ـ فقال لها : بل إنسي من أبناء الملوك ، غدرت بي الأيام فأبعدتني عن الأهل والخلاّن .

قالت له : وكيف كان ذلك ؟ وما أقدمك إلى هذا المكان ؟

فحدثها بقصته ، وأطلعها على أحواله . فلما سمعت خطابه ، ورأت حسن شبابه ، تمكنت محبته من قلبها . فقالت له : طب نفساً وقرّ عيناً . فقد وقعت محبتك في قلبي ، وإني كاتمة سرك على جميع بنات عمي وأترابي .

ثم أكلت معه من ذلك الطعام ، ونقلته إلى مجلس الشراب ، فشرب معها من صافي الشراب ، ثم دعته إلى نفسها فوثب إليهـا وافتضّها ، وإذا هي بكر عذرآء .

وكتمت الجارية السر ، واختفى الفتى في القصر . وما زالت فتاة من الفتيات الأربعين تختفي كل يوم في القصر لتكشف سرّ هذا المجهول ، فيصيبها ما أصاب غـيرها : طعام وشراب ثم افتضاض . حتى افتض الفتى الجواري كلهن ، وعلِقن منه ، وبان عليهن الحمل .

ولا يهمنا من القصة كيف خرج الفتى من القصر في مغامرة طويلة ، لكن الذي يستوقفنا هو دعوة كل واحدة من الجواري هذا الفتى إلى نفسها ليفتضّها ويـلذ معها ، فالعمل الجنسي هنا مدار قسم كبير من القصة . وهو يتم بسهولة لا غضاضة ولا تحفظ فيه . كنَّ يدعونه إلى الحب الجنسي كما يدعونه إلى الطعام .

ونجد هـذه السهولة في التحدث عن الأمور الجنسية أيضاً في قصة عبقرية من مجموع هذه القصص ، هي قصة عروس العرائس . فعندما يختبيء التاجر في الجزيرة النائية وسط البحار ، يرى مخلوقاً أسود ،

له مشافر كبار غلاظ كمشافر الجمال وأهول ، ومعه فتاة لم ير الراؤن أحسن منها ولا أجمل . قد أشرق ما حولها من حسنها وجمالها ، وبهائها وكمالها ، عليها حلى فاخرة . ثم أتى بكبش فشواه ، وأكلا ، يقول : « ثم أخذ يضاجعها وتضاجعه ، ويُلاعبها وتُلاعبه ، ويلاهيها وتلاهيه ، وهو يهمهم لها بكلام لا أفهمه ، ثم قفز على صدرها فنامت ، ومكنته من نفسها ، فنكحها خمس دفعات وهي ساكنة لا تمانعه ، ولا تنطق » .

فلما أحسّت الفتاة بوجود التاجر فوق الشجرة ، وكان المخلوق الأسود قد نام، دعته إلى النزول إليها . « فبدرت إليّ واعتنقتني والترمتني. فلما التصق جلدي بجلدها تحرّكت بي الشهوة . فلما رأت ما نزل بي من الشوق إليها والشهوة لها مكنتني من نفسها . فوطئتُ موطئاً ما رأيتُ مثله من اللذات ، وسلبت عقلي ولبّي » .

وأخبرت عروس العرائس الرجل التاجر عن قصة حياتها ومغامراتها . « كانت لي جارية كان أبي وهبها لي ، فكانت تؤنسني ولا تفارقني . وكانت تحدّثني بحديث العاشقين ، والمتيمين ، وتصف لي صفة الرجال ، فمال إليها قلبي وسلبت عقلي ولبي ... فلما كان ذات يوم جلستُ مع الجارية ، فأذهلتْ عقلي بما حدثتني من فنون الأحاديث والأخبار . وقالت لي : والله يا ستي أنت كما سُميت عروس العرائس . وإني أنظر إليك وإلى حسن وجهك وجمالك ، فأتأسف عليك كيف

يذهب الجمال ولا تعرفي الدنيا ولذّاتها ، والحياة وسرورها . وليس للجارية فرح وسرور ، إذا بلغت ، إلا رجلاً شاباً حسن الوجه ، مليح المنظر ، عذب الألفاظ ، تام العقل ، تلعب معه ويلعب معها . ثم جعلت تلحّ عليّ في هـذا المعنى ، وتصف لي الشبان والمتيمين ممن كان قبلنا حتى شوّقتني إلى ذلك ... فلم تزل حتى أتتني بفتى حسن الوجه ، مختفٍ في زي النساء ، لا يشعر به أحد . فادخلته إليّ وأجلسته إلى جانبي . فقعدتُ أنا وهو على فراش واحد . ثم طيبتني وعطّرتني وولّت خارجة من المجلس . وأغلقت الأبواب ... فعند ذلك مدّ الفتى يده ولاعبني وبلغ ما أراد مني .. »

وتمضي عروس العرائس تتحدث عن مغامراتها الجنسية ببساطة وسذاجة ، كأنها تتحدث عن أبسط الأشياء وأهونها .

إن مكان اللذة الجنسية عند عروس العرائس مباح لمن يريده ، عندما تودّ الوصول إلى أمر تهواه . وهـذا جانب ثانٍ في عروس العرائس . فهي أول الأمر كانت تغامر لتنال اللذة ، ثم نراها لا تتورّع عن أن تهب هذه اللذة الجنسية لتبلغ ما تريد . هي تعطي نفسها لتملك غيرها . وهي لا تجعل مكان اللذة في المرأة محرّماً . ولم تبال ، مرّة ، في سبيل نزواتها ، من أن تدبر مكيدة لجميع الفتيات العذارى في مدينتها ، فتجعلهن يقعن في حبائل الشّطار ليفضّوا بكارتهنّ ، ويصبحن مثلها عديمات البكارة .

لا يتّسع بحثنا هـــذا لسرد مغامرات عروس العرائس الجنسية كلّـها . وأحسن سبيل لمعرفتها هو قراءة القصة نفسها . على أننا نودّ أن نقرّر أمراً . إن جميـع هـذه التجارب الجنسية التي نجدها عنـد عروس العرائس ، وفي قصة الأربعين الجارية ، والتي نوّهنا بهـا من قبل في ألف ليلة وليلة ، هي تجارب طبيعيّة واقعية . ليست من نسج الخيال والوهم . إنها كانت تقع قبل ألف سنة ، وقد تقع اليوم في عصرنا ، لأنها صادرة عن الطبيعية البشرية ، رغم ما قـــد نجد في بعضها من شذوذ أحياناً .

قبل أن نختتم هذا الفصل ينبغي أن ننوّه باقاصيص أخرى تدخل ضمن نطاق الأقاصيص الشعبية ، غير أنها أكثر لصوقاً بالجنس . هي أقاصيص الجواري اللواتي يتحدثن عن مغامراتهنّ الجنسية ـ التي نجدها في كتاب رجوع الشيخ إلى صباه ـ . هـذه الأقاصيص قديمة وُضعت أيضاً في زمن العباسيّين ، وتناقلتها الكتب حتى حفظها أخيراً كتاب رجوع الشيخ . وهي أقاصيص شعبية جنسية ، يدور موضوعها كله على الجنس . وتختلف عنها أقاصيص ألف ليـلة والحكايات العجيبة بأنها أقاصيص عامة صوّرت ، فيما صوّرته من الحيـــاة ، الجانب الجنسي ، مضافاً الى جوانب أخـرى . كانت هؤلاء الجواري ، من طبقات مختلفة من الشعب : بينهن امرأة التاجر الغني ، وابنة الخبّاز ، والفتاة المتدينة الطاهرة ، والفتاة التي تتلقى العلم ، والمرأة التي كانت تكره الرجال ، وغير ذلك من أنواع النساء ، واذا بهنّ جميعاً يصبحن

جواري من بائعات اللـذة ، يغنين ، ويرقصن ويضربن على العود ، ويقضين الليالي مع الرجال . واذا بهن ذات ليلة ، يتحدثن الى ابن أحد الوزراء عن مغامراتهن الجنسية وكيف صِرْن الى مـا صِرْن اليـه . وتصوّر هذه الأقاصيص ، أنموذجات من المآسي الإنسانية المؤلمة التي يسببها الجنس . ولم يكن القصد من وضعها اظهار « المأساة » أو « الاعتبار » ، بل إثارة الغرائز الجنسية وتنشيطها . إنها أقاصيص ، مع الأسف ، انسانية طبيعية ، ولكنها مبتذلة منحطّة .

الجنس في اللغة

اللغة ، على قول ابن جني ، أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم . وهـــذه الألفاظ التي تستعملها هي تواضع واصطلاح وضعها العرب واصطلحوا عليها للتعبير عن كل شأن من شؤون حياتهم اليومية .

وقد يزيد عدد الألفاظ الموضوعة لأمر من الأمور أو ينقص حسب كثرة الحاجة إليه أو قلة ذلك ، وحسب عظم الأمر الذي وُضعت من أجله أو حقارته .

وإذا كان الجنس أمراً لا يمكن أن تقوم الحياةُ الإنسانية بدونه ، فقد كان من الطبيعي أن نجد في اللغة العربية ألفاظاً تدل عليه ، وتؤلف بمجموعها اللغة الجنسية عند العرب .

فما هي صفات هذه اللغة ؟

الصفة البارزة جداً أنها لغة غنية خصبة منوّعة شاملة . وأمام وفرة ألفاظها لا نبالغ إذا حكمنا أن العرب وضعوا للأمور الجنسية ألفاظاً لم

يضعوا كثيراً مثلها لأي أمر آخر ، بل لا نبالغ أمام وفرتها أيضاً أن نقول إننا لا نجد في أي لغة ما نجده في اللغة العربية من ألفاظ الجنس ، بعددها الكبير ، وتنوعها المدهش .

وقد أفرد كل من الفيروز آبادي والسيوطي كتاباً خاصاً بأسماء النكاح . وألّف ابن القطّاع اللغوي كتاباً سماه « كتاب النكاح في اللغة » . ذكر فيه ألفاً وثلاثة وثمانين فعلاً كلها بمعنى « نكح » .

وإذا تتبعت ألفاظ القاموس ، قل أن تجد لفظة إلا ولها معنى يدل مجازاً أو حقيقة على أمر من الأمور الجنسية .

لقد تتبعت ألفاظ حرف الهمزة في القاموس فوجدت الأفعال الآتية كلها بمعنى جامع :

حزأ المرأة ، وحشا ، وحطا ، وحلأ ، وخجأ ، ورشأ ، ورطأ ، وزكأ ، وشطأ ، وشطأها ، وكشأ ، ووجأ ، ووَطَأ .

فهذه ثلاثة عشرة لفظة كلها بمعنى « نكح » ، من حرف الهمزة وحده ، عدا الكثير من الألفاظ على وزن فاعل ، مثل جامع المرأة ، باعل المرأة ، باضع المرأة ، باشر المرأة ، لامس المرأة .

أو ألفاظاً أخرى مثل : غشيها ، وطئها ، رمطها ، دعكها ، وسمها ، دعسها ، خالطها ، طفسها ، لمسها ، مَخّها ، زخزخها ، رعزها ، دسرها ، طمثها ، عَفَجَها .

وسمّوا عضو المرأة أسماء كثيرة حسب أشكاله وأنواعه مثل :

الفرجُ ، والحر ، والهَنُ ، والرّكبُ ، والأخثم ، والسفلح ، والعركوك ، والعضّنك ، والعَفْلَقُ ، وغير ذلك .

قال الزجّاج : فإذا كان ناتئاً فهو الكعثُب ، وإذا كان مكتنزاً فهو الأخثم ، وإذا كان مسترقّاً فهو الحزابية ، والعيلم هو الواسع ، والمنهوش هو الصغير ... الخ .

ووضعوا لعضو الرجل أسماء كثيرة مثل :

القُمُدّ ، والاحليلُ ، والقضيبُ ، والذكَر ...

ومن ألفاظ النكاح نفسها :

النكاح ، والشجزُ ، والطحزُ ، والدّسْرُ ، والخوْشُ ، والقفشُ ، والزكْبْ ، والقَزْبُ ...

وأطلقوا على حالات كثيرة تحدث عند الجماع ألفاظاً خاصة ، مثل تسميتهم من يُحدث عند الجماع أو يُنزل قبل الإيلاج بالتيتاء ، وكتسميتهم المرأة التي يُغشى عليها عند الجماع بالرّبوخ .

إلى غير ذلك من آلاف الألفاظ الدالة على الأمور الجنسية التي لا يتسع كتابنا لذكرها هنا .

وهنا نتساءل : ما سبب هذه الكثرة في الألفاظ .

إن السبب يعود إلى أمرين :

١ ـ تنوّع لغات القبائل . فقد يكون لكل قبيلة من قبائل العرب ألفاظاً جنسية كانت تتحدث بها فلما جُمعت إلى ألفاظ القبائل الأخرى كان منها هذا العدد الكبير .

٢ ـ إن كثرة الألفاظ تدل على كثافة الحياة الجنسية عند العرب ، وعلى الحاجة الماسّة إلى تلك الألفاظ . وعلى الرغم من أن جميع تلك الألفاظ تدل على معنى نكح إلا أن هناك فروقاً في المعاني بين كل لفظ ولفظ . وكذلك في أسماء الفرج . فالعفْلق الفرج الرطب المسترخي ، والأجثم الفرج المشرئب ، والعركرك الركب الفخم ، والعضنّك الفرج العظيم المكتنز . فمن أجل هذه الفروق في المعاني أطلقوا ألفاظاً كثيرة . وهذا يدلّ على دقتهم وعنايتهم بالتعبير الدقيق ، وتسمية كل شيء ، وكل حالة باسم خاص .

ولا شك أن غالب الألفاظ كانت موجودة منذ أيام الجاهلية . ولكن الإسلام أضاف إلى هذه الألفاظ ألفاظاً جديدة . ما زالت تزيد بازدياد كثافة الحياة الجنسية والتفنن فيها . ولقد رأينا أن حُبّى ، المرأة التي اشتهرت في المدينة بالشبق ، وضعت لكل هيئة من هيئآت الجماع لقباً مثل القبع والغربلة والنخير ... وكذلك وضع أهل كل مذهب من مذاهب اللذة الجنسية ألفاظاً جديدة استمدوها من نوع اللذة أو شكلها ، كما وضعت المساحقات أسماء لضروب السحاق مثل الضفدعي والاستكلاب والمخالف والمؤآلف .

* * *

ونستطيع أن نلحق باللغـة الجنسية : الكنايات الجنسيّة . فرغم انطلاق العرب في التصريح بالأمور الجنسية أحياناً كثيرة ، نجدهم قد برعوا براعة مدهشة في أمـــر الكنايات الجنسية ، للتحرّز عن ذكر الفواحش ، أو ذكر أعضاء المرأة والرجل الخفيّة . فكنَوْا عن أدق الأشياء بألفـاظ لطيفة ، وإشارات مقبولة ، لا يتقزّز منها السمع ، ولا تأباها النفس .

وعندما ألّـف أبو العباس أحمد بن محمـد الجرجاني ، المتوفى سنة ٤٨٢ كتابه « المنتخب من كنايات العرب » ، جعل فيه فصولاً خاصة بالأمور الجنسية . مما يدلّ على اهتمام الناس بهـا ، وانتشارها قبل ذلك العصر . فنراه يذكر الكنايات عن الزنا ، والجماع ، وقوّة الآلة وضعفها ، والبكارة ، والثيّب ، وإتيان المرأة في الموضع المكروه ، واللواط ، والتفخيذ ، وجَلْد عُميرة ، والسَحْق ، والبغاء ، والأُبْنة ، والقيادة ... وغير ذلك .

ونحن نجد مثل هذه الكنايات في القرآن الكريم . فقوله تعـــالى (ولكن لا تُواعدوهنّ سرّاً) كناية عن الجماع . كنى بالسرّ عن الجماع . وكذلك قوله تعالى (أو لامسْتم النساء) فكنى عن الجماع بالملامسة ، وهي ألطف لفظاً وأرق معنى . وفي قصة داود قال (إنّ أخي هذا له تسع وتسعون نعجة ، ولي نعجـة واحـــدة) ، فكنى بالنعجة عن المرأة .

ونجد مثل ذلك في الحديث النبوي . قال الرسول : « من كشف قناع امرأة وجب عليه مهرها » . كنى بكشف القناع عن دخوله بها .

وجاء في الحديث : « رفقاً بالقوارير » ، فكنى بالقارورة عن المرأة ، لأن قلوب النساء في رقة القوارير .

ومن الكنايات الجنسية في الشعر أنهم كنوا عن المرأة الزانية بأنها لا ترد كفّ لامس ، وكنوا عن العجز عن الجماع بانكسار المفتاح :

عذّبني الشيخُ بألوان السَهَرْ
بالشمّ والتقبيل منه والنظرْ
حتى إذا ما كان في وقت السَحَر
وصوّب المفتاحَ في القفل انكسرْ

وكنوا عن الافتضاض بفضّ الأختام ، أو فض الصدف قال الفرزدق :

فبِتْنَ بجانبيَّ مُصَرَّعات
وبتُّ أفضّ أغلاق الختام

وقال الميكالي :

أبا جعفرٍ ! هل فَضَضْتَ الصَدَفْ
وهل إذْ رميتَ أَصبْتَ الهدف ؟

وكنوا عن الافتراع بثقب اللؤلؤ :

قالوا عشقتَ صغيرةً فأجبتُهم
أشهى المطيِّ إليّ ما لم يُركبِ
كم بين حبّـــةِ لؤلؤٍ مثقوبةٍ
نُظمتْ ، وحبةِ لؤلؤٍ لم تُثقبِ

وقد سُئل بشّار الشاعر مرة عن صنعته فقال : ثقب اللؤلؤ .

وكنوا عن آلة الرجل بالموز . قالت جارية لأخرى : ما أطيب الموز ! فأجابتها ، نعم ، لكنه ينفخ البطن . كَنَتْ بذلك عن الحَبَل .

وكنوا عن الاستمناء بجلد عُمَيْرَة ، وعن الذكَر بعُميرة ، قال الشاعر :

إذا حَللْتَ بوادٍ لا أنيس بـه
فاجلِدْ عميرةَ لا داءٌ ولا حَرَجُ

وفي كتاب الجرجاني المنتخب ، وكتاب الكنايات للثعالبي أمثـلة كثيرة من هذا الباب .

المؤلفاتُ الجِنسيّة

ظهرت التواليف الجنسية ، سواء كانت مترجمة أو موضوعة ، في أوائل القرن الثالث ، إن لم يكن قبل ذلك بقليل . ويرجع ظهور هذه التواليف إلى عوامل شتى منها طبيعة العرب الشهوانية ، وما سبّبته الحضارة والترف من الحرية ، وتوفر أسباب الملذات ، ومعاشرة الجواري والقيان والغلمان ، وانتشار المتظرفات والمخنّثين ، ووجود الأماكن التي تضمن اللذائذ كالديارات أو المجالس الخاصّة ، أو القصور ، وبالجملة توفّر كل ما يثير الغرائز الجنسية وينشّطها . وقد انطلقوا يلذّون بالنساء ، ثم خالفوا المالوف وعمدوا إلى الغلمان ، ثم بحثت النساء عما « فوق اللذة » بأعمال فيها رهافة ونعومة وطول ، بعيدة عن العنف الذي يُصاحب الجماع ، فوجدن السحاق . ثم رفعهم توفر هذه الملذات كلّها ، إلى التفنّن بها ، وإتيان النساء ، أو الغلمان ، أو التساحق ، على وجوه كثيرة وضروب متنوّعة خشية الملل . ونشطت القيانة والبغاء والقيادة والتخنّث . وقد تشارك في ذلك كله العامة والخلفاء ، كلٌّ على قدر نصيبه من الحياة ، وتوفر الأسباب لديه . ولا شك أن هذا التفنن

في ضروب اللـذة الجنسية ، مهما كان مصدرها ، ساعد على وجوده القيان المختلفات الأجنـاس ، اللواتي كن يأتين من أقطار الأرض إلى بغـــداد فينقلن معهن طرائقهن في الحبّ الجنسي . فاضطروا أمام شهواتهم المتّقدة أن يبحثوا عن طرائق مختلفة تضمن لذاتهم ، وتضمن استمرارهم فعمدوا إلى الترجمة ، فتُرجمت كتب في هذا الشأن عن فارس والروم والهند ، وكلهم أمم أقدم حضارة من العرب ، وأقدم تفنّناً في الانغماس في اللذة .

ولعل الجاحظ أقـدم من عرفنا أنّـه ألّـف في الأدب الجنسي أو أشار إلى قصة جنسية مترجمة. فكتابه «المفاخرة بين الجواري والغلمان» مثال جيد لبواكير الأدب الجنسي . وقـد نُسب إليه كتاب في الباه اسمه « العرس والعرائس » نعتقد أنه ليس له . وقد نُقل عنه ذكر كتاب « الألفية » الذي تُرجم عن الهندية ، مما يدلّ على وجود هذا الكتاب زمن الجاحظ أو قبله .

وعاصر الجاحظ كاتبٌ اسمه محمد بن حسّان النملي ، ترجم له ياقوت فذكر أنه عاصر المتوكل وألّـف تآليف جنسية كثيرة منها كتاب كبيرٌ في الباه ، وأخبار النساء وهو برجان وحباحب . وكتاب في البغـاء وآخر في السحق . وكتاب خطاب المكاري لجارية البقّال ، وغيرها . وقـد فُقدت كتب النملي ، ولكننا نجـد بعض نقول منها في الكتب المتأخرة التي أُلّـفتْ في البـاه ككتاب العرس والعرائس ، المنسوب

للجاحظ ، وكتاب جامع اللذات ، وكتاب رجوع الشيخ إلى صباه المنسوب لابن كمال باشا .

وذكر ابن النديم في الفهرست تواليف أخرى أُلّفت في القرن الثالث وفي القرن الرابع ، في الأمور الجنسية . فقد عقد فصلاً عن أسماء الكتب المؤلفة في الباه إلى جانب ما عرفه في عصره من الكتب في الفلسفة والأدب والتاريخ والفقه وغير ذلك . وقد سرد ما أُلّف في الباه الفارسي والهنديّ والروميّ والعربي . مثل كتاب بنيان دخت ، وكتاب الألفيّة الكبير ، وكتاب البغاء ولذّاته ، وكتاب الخضخضة ، وكتاب السحّاقات والبغّائين ، وقد شُهر فيمن ألّف في هذا الباب أبو العنبس ، وابن شاه الظاهريّ .

ثم اضطردت هذه المؤلفات فكان لا يخلو عصر من العصور من كتب أُلّفت في الأدب الجنسي على أنواعه ، وظهرت العناية بطبّ الأعضاء التناسلية أيضاً . وكان من آخر هذه التواليف كتاب رجوع الشيخ إلى صباه الذي نال شهرة كبيرة ، على هزاله ، في كل مكان .

وكانت التواليف التي ظهرت بعد القرن الخامس تستمدّ مادتها أو بعضها من تواليف القرون السابقة ، على الأغلب ، وكانت أكثر هذه الكتب ، تؤلف على طلب من الأمراء أو الملوك . فالحكيم الأزرقي أعاد كتابة الألفية بطلب من طوغان شاه ، والسموءال الاسرائيلي ألّف كتابه نزهة الأصحاب للأمير الب قتلغ بك ، ومؤلف رجوع الشيخ ألّفه على قولٍ بطلب من السلطان سليم خان العثماني ، وهكذا .

نستطيع أن ندخل في التاليف الجنسي أربعة أنواع من المؤلفات .

١ ـ التواليف التي أفردت لفنّ الحب الجنسي واللذة على اختلاف ضروبها ومصادرها ، والدواعي المثيرة لها . وأكثر المادة التي تتضمّنها هذه الكتب تدور حول الحب الجنسي ، وأوقاته ، وأشكاله ، ومذاهب العشاق والناس فيه ، والنافع والضار منـــه ، ووصف أعضاء المرأة والرجل التناسلية شعراً أو نثراً ، والوصايا الجنسية التي تزوّد بهـــا الأمهاتُ بناتهن ليلة نعيمهن ، أو الصواحب صواحبهن ، والمغامرات التي جرت للنساء ، على اختلاف طبقاتهن ومشاربهن ، في الحب الجنسي سراً وعلانية ، برضاهن أو رغماً عنهن . وأخبار القيادة ، والبغاء ، والسحاق ، واللواط ، والدبّ ، وإتيان النساء والغلمان ، وآداب ذلك . وأخبـار الإناث اللواتي يأتين الذكور ، وأخبـار القحاب والمخنثين . واتخاذ الربيطات والحبيبات . وأوصاف النساء المثيرة للذة ، وحبّ النساء اللـــذة ، وما رُكّب في ذلك من أقاصيص عجيبة تثير الباه . والخطب الجنسية في محاسن الملذات ، وغير ذلك ...

٢ ـ التواليف الطبيّة التي أُفردت كلّها لموضوعات جنسية تتعلق بالباه . وتدور مادتها حول الباه والأغذية والأشربة والمعاجين والجوارشنات والحقن وما إلى ذلك ، مما يقوّي الأعضاء التناسلية عند الرجل ، أو يزيد الشهوة عند المرأة ويُصلح أعضاءها . وما يمنع الحَبَل ، وما يضيّق فرج المرأة إذا اتسع ، ويجفّفه إذا رطُـب ، ويُلهبه إذا برد ، وغير ذلك .

٣ ـ التواليف التي جمعت بين فن الحب الجنسي والطب الجنسي معاً .

٤ ـ تواليف عامّة ، ذات موضوعات مختلفة تضمّنت إشارات أو مقتطفات ، أو فصول ، أو أقاصيص ، تتعلّق بالجنس ، والأعضاء التناسلية ، ووصفها ، وأخبار تتعلق بكل ما ذكرناه في الفقرة الأولى .

ونذكر من هذه الكتب العامة على سبيل المثال الأغاني لأبي الفرج ، والديارات للشابشتي ، وأخبار أبي نواس لأبي هفّان ، والإمتاع والمؤآنسة لأبي حيّان ، والذخائر والبصائر له أيضاً ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، ومطالع البدور للغزولي ، ونهاية الأرب للنويريّ ، وغير ذلك .

* * *

إن معظم الكتب الجنسية التي أُلّفت منذ القرن الثالث موجودة في مكتبات العالم مخطوطة لم تُطبع . والذي بين الناس هو ما أُلّف في القرون الأخيرة ، وهو محصول انحطاط التأليف في هذا الموضوع . وسنقدم فيما يلي ، معلومات عن بعض هذه المؤلفات المخطوطة التي اطلعنا عليها ، وهي من مختلف العصور ، ونسرد فصولها وأبوابها ، ليدرك القاريء المادة التي تضمنتها .

الألفية امرأة من الهند ، كما ذكر الجاحظ ، وطئها ألف رجـل فكانت بذلك أعلم أهل زمانها بأحوال الباه . فتحدّثت عن أخبار النكاح وطرائقه وما يتعلّق به ويدور حوله .

وقد ذكر صاحب كشف الظنون أن الذي ألّـف أخبار الألفيّـة هو الحكيم الأزرقي ، ألّـفها للملك نيسابور طوغان شاه لما ابتُلي بضعف الباه فانتفع بها . وقد جعلها مصوّرة ، لأن النظر إلى أمثال هذه الصور – على حدّ زعمه – يحرّك الشهوة تحريكاً قويّاً . وقد وهم حاجي خليفة في نسبته الألفية إلى الأزرقي ، لأنها كانت من الكتب التي سبقت عصر الأزرقي الهروي – وهو القرن الخامس . فقد ذكرها ابن النديم ، وهو من أهل القرن الرابع . ويذهب القزويني في « جهار مقاله » إلى أن من المحتمل أن يكون الأزرقي اهتم بالكتاب فأصلحه وهذّبه لطغان شاه .

وكانت الألفية مشهورة جـداً ، يلجأون إليها لإثارة الشهوات . ونجد ذكراً لها مفصلاً في تاريخ البيهقي ، فقـد كان الملك مسعود بن محمود الغزنوي يهتم بها في أيام شبابه . قال البيهقي :

« ومما يؤثر عن يقظة الملك الجليل مسعود أنه كان يعمد سراً في شبابه إبّـان مقامه في هراة إلى تناول الشراب وإقامة مجالس الطرب . فيؤتى إليه خفية بالمطربين والمطربات . وقـــد أمر بتشييد بيت في

جوسق البستان العدناني للراحة وقت القيلولة ، وكانت مجهزة بأنابيب تجري فيها الميـاه المتصاعدة من الحوض إلى أعلا السطح ، فتدور في الصنابير وتبلّل ستائر الخيش . وقـد زيّـنت جدران هذا البيت من السقف إلى الأرض بصور الألفية البديعـــة لمختلف أوضاع اجتماع الرجال بالنساء ، وكلهم عُراة على غرار ما صُوّر في ذلك الكتاب من الصور والقصص والكلام . وكان يذهب إلى تلك الغرفة حيث يقضي وقت القيلولة . هذا وللشبان أن يفعلوا مثل ذلك وأن يتمتّعوا بمثل هـذه المتع » .

وهـذا الخبر يدلنا على اهتمام النـاس بكتاب الألفية المذكور ، كما يدلنا أنه كان مصوّراً صوّرت فيـــه طرق الحب الجنسي ، واجتماع الرجال بالنساء ، بعُري تام .

وقد فُقد هذا الكتاب ، ولكن وصل إلينا مقتطفات منه .

هذا الكتاب من أغزر الكتب الجنسية مادة وأكثرها أصالة ، بل هو أعظم ما ألّف عن الجنس . ألّفه أبو الحسن علي بن نصر الكاتب السمناني . واستقى مادته من الكتب القديمة المؤلفة في هـــذا الباب وخاصة ما نقل عن الهندية واليونانية . وكذلك نجد فيه نقولاً كثيرة عن كتاب برجان وحباحب للنمّلي ، وهو كتاب مفقود .

جاء في أوله :

« ... إن الله جـلّ ثناؤه ، وتقدّست أسماؤه رفع النكاح وأعلى شانه . فأقام بجلاله الأديان ، وجعل به بقاء الحيوان ، وعمر به البلاد ، وكثّر العباد ، وحضّ عليه في كتبه القديمة المنزلة ... وأبان لنـا عن جلالة محله بما خصّ اللذة به من الزيادة على غيرها والإنافة على نظائرها ، ثم بإضعافه في النساء وإلهامهنّ إرادته ليكون ذلك داعياً إلى طاعتهن وباعثاً على متابعتهن .. »

وهذه أبوابه وفصوله :

١ – في أسماء النكاح وما كُني به
٢ – في فضل النكاح ومنافعه
٣ – الكلام على النكاح
٤ – أسماء الذكَر والفرج
٥ – مناقب الذكَر والفرج

نزهة الاصحاب في معاشرة الاحباب

ألّف هذا الكتاب السموأل بن يحيى بن عباس المغربي الاسرائيلي الحاسب المتوفى سنة ٥٧٦ هـ - ١١٨٠ م ، للأمير الب قتلغ بك أبي بكر ابن قرا ارسلان بن داود بن سكمان بن ارتق . وجعله في جزأين ، وافتتحه بقوله : الحمد لله الذي جعل رحمته للمذنبين ملاذاً ، وفطر غرائز البشر على اتباع الشهوة ...

وهذه أبوابه :

١ - منافع الجماع ومضارّه
٢ - تقدير الجماع
٣ - ذكر السبب الذي لأجله رغب الناس في الباه والعلة في إلتذاذهم به
٤ - تقسيم أسباب الضعف عن الباه وعلاقة ذلك
٥ - ذكر العلّة في عفة من يكره أو يعاف جماع محبوبه
٦ - ذكر العلّة في عدول بعض الناس بالباه عن المجرى الطبيعي ، وعلّة إيثار بعض العقلاء الغلام على الجارية وإيثار بعض النسوان السحق .
٧ - ذكر العلّة في تشوّق نفوس الشبان ذوى الأمزجة القريبة من الاعتدال إلى الاستكثار من الصور الجميلة بغير نهاية
٨ - ذكر العلّة في اعتكاف العارف على الباه
٩ - في آداب المعاشرة والمحادثة والمؤآكلة والشراب والسماع والمنادمة والمضاجعة والمجامعة
١٠ - في شرى الرقيق ، وتفقد جسمه بحسب كل واحد من الأعضاء ، وتعرّف أخلاقه بقياس الفراسة على مذهب الفلاسفة ، ومعرفة

أجناسه وما يصلحون له من الأعمال، والتحرّز من تلبيسات النخاسين التي يدلّسون بها في المواسم على المشتري

١١ – في التزويج ، وذكر الصفات المحمودة في النساء والصفات المذمومة ، وما يوصى به الرجل المزمع على التزويج ، وآداب العروس

١٢ – في اتخاذ الربيطات والحبيبات والظريفات المساعدات

وقد جعل الجزء الثاني لأمور طبية بحتة :

١ – ذكر المفردات المعينة على الباه

٢ – أدوية وأغذية وطبابيخ وحلاوات وأشربة مقوية على الباه

٣ – الحقن والمسوحات والأطلية المعينة على الباه

٤ – تدارك ضرر الباه

٥ – علاج من ضعف عن الباه لسوء مزاج قلبه ، أو كلاه ، أو قلة منيه ، أو ضعف أعضائه ، أو سوء مزاج الانثيين .

٦ – علاج من ضعف عن الباه لمرض جسماني أو روحاني ، وعلاج قروح الاحليل ، واتساع المجاري ، وسرعة الإنزال ، والعشق وعلاجه . .

٧ – في الحبل وما يتعلّق به ، وكيفية الإحبال ، وعلاج من لا يحبل ، وما يُسقط الأجنّة

٨ – في مداواة المربوط

٩ – في مداواة أحوال تختص بالرحم : ومعظّمات الذكَر ، والمضيّقات والملذّذات ، ومداواة النزف والاستحاضة والسيلان ، واحتباس الطمث ، ومداواة قروح الرحم ، ومداواة حكة الرجل وأبنة النساء

١٠ – علاج الأسباب القاطعة عن الباه من جانب المرأة

١١ – ذكر المفردات القاطعة عن الباه

١٢ – تركيب أدوية وأغذية وأطلية تقطع عن الباه .

نزهة الالباب فيما لا يوجد في كتاب

ألّف هذا الكتاب أحمد بن يوسف التيفاشي المغربي المتوفى سنة ٦٥١ هـ ـ ١٢٥٣ م . وكان أديباً شاعراً ، وهو مؤلّف سرور النفس .

ابتدأه بقوله : الحمد لله الذي علم طبع الإنسان في الملال ، وعجّزه عن تحّمل الأثقال ...

وهو يتضمن الأبواب التالية :

١ — في الصفع وما فيه من المنافع والفوايد
٢ — في القوّادين والقوّادات وما جاء فيهم من نوادر وأشعار
٣ — في شروط الزناة وعلامات القحاب
٤ — في القحاب والمبتذلات ونوادر أخبارهن وملح أشعارهن
٥ — في نوادر أخبار الزناة ومليح أشعارهم وحكاياتهم
٦ — في شروط اللائطة وعلامات المؤاجرين وأشعارهم
٧ — في نوادر أخبار المُرد المؤاجرين وملح أشعارهم الفصيحة
٨ — نوادر أخبار اللائطة ومُلح أخبارهم
٩ — في آداب الدبّ ونوادره وأخباره وأشعاره
١٠ — في أخبار الأناث تأتي الذكور ، وما قيل فيها من النوادر
١١ — في أدب المساحقات ونوادر أخبارهنّ وملح أشعارهنّ
١٢ — في الخناث والمخنثين وما جاء فيهم من نوادر وأخبار وملحو أشعار.

رجوع الشيخ إلى صباه في القوة على الباه

أوتي هذا الكتاب شهرة واسعة جداً ، وأقبل الناس عليه ، ولعل السبب هو أنه طُبع فتداولته الأيدي ، في حين ما تزال أمهات الكتب الجنسية القديمة مخطوطة مبعثرة في مكتبات العالم . وقد ذكر صاحب كشف الظنون أن مؤلفه هو أحمد بن سليمان الشهير بابن كمال باشا المتوفى سنة ٩٤٠ هـ . وقد ألّفه باشارة من السلطان سليم خان . فجمعه من بعض الكتب القديمة في الباه ، ككتاب الباه للنملي ، وكتاب العروس والعرائس للجاحظ ، وكتاب القيان لابن حاجب النعمان ، وكتاب الإيضاح (في علم النكاح) ، وكتاب جامع اللذة لابن السمناني ، وكتاب برجان وحباحب (للنملي) ، وكتاب المناكحة والمفاتحة في أخبار الجماع وآلاته لعز الدين المسبّحي . وقد قال في فاتحة الكتاب : إني لما رأيت الشهوات كلها منوطة بأسماء الباه وداعية إلى الجماع ، ورأيت أهل الأقدار وأرباب الأموال ورؤساء أهل كل بلد في عصرنا هذا وما تقدّمه من الأعصار والأزمان هممهم مصروفة إلى معاشرة النساء ، وأموالهم متفرقة في بيوت القيان ، ولم أر أحداً منهم يخلو من عشق لمغنية واستهتار بجارية ، وغرام بفاحشة ، علمتُ أن معرفتهم بما انصرفت إليه شهواتهم وتتبعته نفوسهم مما يجلّ نفعه وتعظم فائدته ، فدعاني ذلك إلى تاليف هذا الكتاب . » ثم بيّن أنه قصد في تاليفه « إعانة من

قصّرت شهوته عن بُلوغ أُمنيته في الحلال ، لا إشاعة الفساد أو طلب الإثم أو إعانة المتمتعّ الذي يرتكب المعاصي » .

جعل المؤلف كتابه في جزأين ، فالأول قسم طبي بحت ، والثاني بيّن فيه النكاح وطرائقه وما يتعلق به ، وساق بعض الأقاصيص الجنسية ، وأهمها قصة الجواري اللواتي تحدث عن مغامراتهن . ولكي يعرف القاريء مادة الكتاب قدّمنا عنوانات أبوابه .

الجزء الأول من رجوع الشيخ إلى صباه

١ — ذكر مزاج الاحليل وما يتعلق بذلك من أمر الباه

٢ — ذكر الضرر الذي يحصُل من الاسراف في استعمال الباه

٣ — تلاحق الضرر الحادث عن الإفراط في الباه

٤ — فيما يجب أن يُستعمل بعد الجماع ، وتدارك خطأ من غلب عليه البرد

٥ — في ذكر منافع الباه ، وما الذي نقل عن الحكماء في ذلك

٦ — الأوقات التي يُستحبّ فيها الجماع ، ومدد النكاح ، وأحواله ، ورداءة أشكاله .

٧ — مقدمة يلزم معرفتها لمن أراد تركيب أدوية الباه

٨ — الأدوية المفردة الزائدة في الباه

٩ — الأدوية المركبة الزائدة في الباه

١٠ — معرفة الأدهان الزائدة في الباه

١١ — المسوحات الزائدة في الباه

١٢ – الضمادات والأدوية والأطلية الزائدة في الباه
١٣ – الجوارشات الزائدة في الباه
١٤ – تركيب الحقن الزائدة في الباه
١٥ – في السفوفات الزائدة في الباه
١٦ – تركيب الحقن الزائدة في الباه
١٧ – في الحمولات والفتائل الزائدة في الباه
١٨ – في المعاجين الزائدة في الباه
١٩ – تركيب اللبانات الزائدة في الباه
٢٠ – في المشمومات الزائدة في الباه
٢١ – الأغذية المركبة في الباه
٢٢ – الأشياء المنقصة في الباه
٢٣ – فيما يطوّل الذكر ويغلظه
٢٤ – تركيب الأدوية الملذذة للجماع
٢٥ – ذكر الأدوية المعينة على الحمل
٢٦ – الأدوية المانعة من الحبل
٢٧ – الخواص المعينة على الباه
٢٨ – الأسماء الزائدة في الباه
٢٩ – تقسيم أغراض الناس في محبتهم وعشقهم .

الجزء الثاني من رجوع الشيخ

١ – معرفة ما يكون في النساء من الأوصاف الجميلة
٢ – العلامات التي يُستدل بها على فراسة النساء ، والحكم عليهن بقلة الشهوة وكثرتها
٣ – الأدوية المحسنة للون والبشرة من الغسولات ..
٤ – الأدوية التي تسرع نبات الشعر وتطوله ، والخضابات التي تحسن لونه ، وترجّله ..

٥ - الأدوية التي تجلو الأسنان ، وتزيل البخر ، وتطيب رائحة الفم
٦ - الأدويه التي تُسمّن البدن وتعبّله
٧ - خضابات الكف وقموع الأنامل
٨ - الأدوية التي تطيب رائحة البدن والثياب في المرأة ، من ذرور البول ، والعرق ، ونتن الفم أو الإبطين
٩ - الأدوية التي تقوي أشفار عنق الرحم حتى لا يضعف
١٠ - الأدوية التي تمنع من ميلان عنق الرحم إلى أحد الجانبين وتثبته وتصلبّه
١١ - الأدوية التي تزيد في مني المرأة وتقوّي ظهرها
١٢ - الأدوية التي تطيّب السحق إلى النساء حتى يَستَغنين به عن جميع ما هُنّ فيه ، ويأخذهن عليه الهيان والجنون
١٣ - الأدوية التي تضيّق فروج النساء وتسخنهن ..
١٤ - الأدوية التي تطيب رائحة فرج المرأة حتى أنّ كل من دنا منها أحب العودة إليها ..
١٥ - الأدوية التي تهيج شهوة النساء إلى الجماع حتى يأخذهن الهيان والجنون ويخرجن من بيوتهن إلى الطرقات
١٦ - الأدوية التي إذا استعملها النساء اللواتي لم يدركن ولم ينبت على أرحامهن شعر يبقى الموضع ناعماً أبداً
١٧ - الأدوية التي إذا استعملتها النساء اللواتي قد أدركن نثرت الشعر الذي على كراسي أرحامهن ومنعته من النبات
١٨ - كيفية أنواع الجماع (يذكر ستة أبواب : الاستلقاء ، القعود ، الاضطجاع ، الانبطاح ، الانحناء ، القيام ..)
١٩ - الحيل على الباه وأحواله
٢٠ - في الحكايات
٢١ - ذكر من وطيء النساء في أدبارهن

٢٢ – شهوة النساء للنكاح
٢٣ – الأحوال التي يُستطاب فيها الجماع
٢٤ – فيما تحبه النسوان من أخلاق الرجال
٢٥ – القيـادة والرسل
٢٦ – قواعد آداب النكاح
٢٧ – المحادثة والقُبل والمزح ووصايا النساء لبناتهن.. وذكر غنج النساء ..
٢٨ – غرائز النساء
٢٩ – ما ينبغي أن يُستعمل من الجماع
٣٠ – الأشياء المخدّرة المنوّمة وما الذي يُسرع السُكر

وقد طبع هـذا الكتاب ، ولكن وجدنا في النسخ المخطوطة منـه زيادات لا توجد في طبعاته المختلفة .

كتاب الباهية والتراكيب السلطانية

ألّف هذا الكتاب نصير الدين الطوسي المتوفى سنة ٦٧٢ هـ . – ١٢٧٣ م وهذه أبوابه :

١ – في تدبير ما يقتضيه مزاج كل انسان وبيان العلامات التي يستدل بهـا على مزاج كل واحد
٢ – في بيان الأغذية المفردة النافعة المقوية المصلحة لبدن الانسان وطبيعته
٣ – في بيان الادوية المفردة التي هي خلاصة الادوية النافعة لجميع الامراض التي يعالج بها خصوصاً لتقوية الافعال في الجماع وزيادة المني وقوة الباه
٤ – في بيان الأدوية والاغذية المركبة والحلويات التي تصلح مزاج الانسان وتزيل علة الفالج ورخاوة الاعضاء وتقوّي أفعال الجماع والباه
٥ – في بيان الاشربة التي تصلح المزاج الفاسد وتصفي الدم وتقوي جميع الافعال للجماع والباه

٦ ـ في بيان المعاجين والجوارشنات المفرحة الرافعة للملال التي تقوي المعدة وتدفع البلغم والسوداء .. وتقوي الجماع قوة عظيمة الخ

٧ ـ في بيان الشيافات التي تدفع الرطوبات من الاعضاء وتزيل البرودات من الظهر .. وتقوي الجماع بالغاً

٨ ـ في بيان الحقن التي تمنع وجع المفاصـــل .. وتشدّ الظهر وتقوي أفعال الجماع

٩ ـ في بيان الشدود والثياب التي تناسب طبيعة الإنسان إذا اشتد بها في وسطه كل فصل من الفصول الاربعة

١٠ ـ في بيان شروط الجماع وكيف ينبغي أن يجامع حتى لا يصل إليه ضعف ولا ضرر ولا سرعة الشيب والشيخوخة

١١ ـ في بيان الادوية التي إذا طلى بهـا على الذكر تغلظه وتشده وتجعله قايماً من غير رخاوة خصوصاً إذا كان الرجـل لا يقدر على أكل الادوية الخ

١٢ ـ في بيان الادوية التي تطلى على الذكر فتطوله وتقويه كما يريد ويشتهي

١٣ ـ في بيان الادوية التي يطلى بهـا بين أصابع اليدين والرجلين فتقوي الجماع وتشد الذكر ومهما جامع لم يضعف ولم يمل ولم يرتخ أبداً

١٤ ـ في بيان الحبوب التي إذا أمسكها الإنسان تلذذ الرجل بالجماع لذة عظيمة

١٥ ـ في بيان حالة الجماع التي يحصل منها لذة عظيمة للرجل والمرأة

١٦ ـ في بيان الادوية التي إذا تحملت بهـا المرأة تصير في ضيق رحمهـا وحرارتها ولذتها

١٧ ـ في بيان الادوية التي إذا تحملت بها المرأة لم تحبل مادامت تستعملها وتصير كالبنات ضيقاً وحرارة

١٨ ـ في بيان الادوية التي إذا تحملت بها المرأة تحبل بإذن الله تعالى وتصير كالبكر التي لم يصبها رجل

نزهة النفوس ودفتر العلم وروضة العروس

في أمور النكاح وغـــيره

لم يُعرف مؤلف هـــذا الكتاب، وعنوانه يدلّ عليه. وإنما له شأن مهم، لأنه أرجوزة شعرية تقع في عشرة آلاف بيت، وفيها ٢٤٠٠ شاهد.

ونحن نعلم أن العرب أولعوا بنظم العلوم، فنظموا الفقه، والنحو، والتاريخ وغيرها، ولم يهملوا الأمور الجنسية. فأفرد لها مؤلف هـذا الكتاب أرجوزة جعلها في عشرة آلاف بيت، وجعلها تدور حول أمور النكاح.

وهذه أبواب الأرجوزة وقد افتتحها بقوله:

وبعـــد فالنكاح أمرٌ شرُفا
وسنّة قـــد حبّبت للمصطفى

المقدمة: في الترغيب بالنكاح

١ – منافع الجماع، ومن ينفعه ومن يضرّه، ومقويّات الباه ومضعفاته
٢ – في أحوال المتناكحين، والوطء، وأزمنته وأمكنته
٣ – في الصفات الحسنة المرغّبة في المرأة
٤ – ما يتعلّق من عـــلم الفراسة بالجماع، والذكور والفروج، وطباع أهل البلاد.
٥ – أسماء الوطء وما وصف به، وما يتعلّق بذلك

٦ – صفات الذكر وأسماؤه
٧ – أسماء الفرج وصفاته وأجزاؤه وما يتعلّق به
٨ – سائر الأمثال المتعلقة بشق من أخبار النكاح
٩ – ما يُثير الشهوة . وفيه حكايات تزيد القوّة
١٠ – آداب الوطء
١١ – في انتخاب أنواعه الجمّة
١٢ – في الهياج ، والرهز في الجماع ، والغناج ، ونوادر لطيفة .

تحفة العروس وروضة النفوس

ألّف هـذا الكتاب محمد بن أحمد المغربي التيجاني المتوفى سنة ٩٥٠ هـ _ ١٥٤٣ م وهذه أبوابه :

١ – باب جامع في النساء وما يُتقى من فتنتهن وما رتبه الله تعالى من قلوب الرجال منهن ...
٢ – باب في العفاف والتصوّن ، وثواب منع النفس عن هواهـا وقمعها عن شهواتها
٣ – الحض على النكاح والانكار على من ترك النساء ...
٤ – تخيّر الرجل لنطفته ، وبيان الخصال التي تزوج لها المرأة ...
٥ – فيما يُباح للرجل من النظر في المرأة إذا أراد نكاحها
٦ – ذكر الصدقات وما ورد في كثرتها وقلتها وكراهة المغالاة فيها
٧ – الوقت المستحب لعقد النكاح وذكر الوليمة
٨ – جلاء العروس عند ابتناء زوجها بها ، ... وذكر جمل من آداب الجماع
٩ – في الزينة والطيب وما يستحب للمرأة من ملازمة ذلك ..

الوشاح في فوائد النكاح

ألّـف هذا الكتاب جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ .

جاء في أوله : سبحان الله خالق المفـارش والمراشف والمشافر ، فاتق المشارع للأشاعر والمشاعر ، رب المشارق والمغـارب ، مـذلّـل الضغائم بالمراشف ...

وبعدُ ، فقد أكثر الناس من التصنيف في فن النكاح ما بين مُسْهِـبٍ ومُختصر ، ومُستَوْعب ومقتصر ، وعلى الجملة فاحسنُ كتاب أُلّـف في ذلك وأجمعه لفوائد هذه المسالك كتاب تحفة العروس ومتعة النفوس لأبي عبد الله محمد بن أحمد التجاني . وقد سوّدتُ في ذلك مسوّدات متعدّدة ، فأول ما عملتُ في ذلك : « الافصاح في أسماء النكاح » ، وهو لغة صرف ، مبسوط بنقوله وشواهده ، في مجلد لطيف .

ثم عملت « اليواقيت الثمينة في صفات الثمينة » وهو مفيـد في مجلد .

ثم سوّدتُ مسوّدة كبرى سميتُها « مباسم المـلاح ومباسم الصباح في مواسم النكاح » مشتملة على سبعة فنون . الأول : في الحـديث والآثار ، الثاني : في اللغة ، الثالث : في النوادر والأخبار ، الرابـع : في السجع والأشعار ، الخامس : في الترشيح ، السادس : في الطب ، السابـع : في الباه . فتضمنتْ من الفوائد جملاً ، ومن الفرائد كثيراً

مفصّلاً ومجملاً ، غير أنهـــا بلغت نحو خمسين كرّاساً ، فاستطلْتُها ، وسئمت من طولها ومَلَلْتُها .

فاختصرتُ منها هذا المختصر في نحو عُشْرِها ، ولخّصْتُ فيـه أحاسن المحاسن من نظمها ونثرهـا ، وإن كنتُ لم اودع في تلك المسوّدة إلا ما يُستحسن ، فقد جئتُ هنا بالأحسن من ذلك الحسن . وانتخبتُ كلّ درّة خفيفة المحمل غالية الثمن ، وسميتُه « بالوشاح في فوائد النكاح » .

مصادر الكتاب

١ – المخطوطات

ارتياح الأرواح في آداب النكاح	لمجهول
الافصاح عن أحاديث النكاح	لابن حجر العسقلاني
الايضاح في أسرار النكاح	لعبد الرحمن بن نصر الشيرازي
الباهية والتراكيب السلطانية	لنصير الدين الطوسي
التدبير المعين على كثرة الجماع	للقرطبي
جوامع اللذة	لعلي بن نصر السمناني
الحكايات	للقاضي بدر الدين العيني
ديوان ابن الحجاج	
ديوان أبي نواس	رواية الاصفهاني
رجوع الشيخ إلى صباه	لابن كمال باشا
رشد اللبيب إلى معاشرة الحبيب	لابن فليتة
رشف الزلال من السحر الحلال	للسيوطي
العرس والعرائس	المنسوب للجاحظ
غاية الإحسان في خلق الإنسان	للسيوطي
المثالب	لابن الكلبي
محاسن النساء	لابن هشام
مرشد المتأهل	للسيوطي
مفرح النفس	للمارديني
نزهة الأصحاب في معاشرة الاحباب	للسموأل الاسرائيلي

نزهة الالباب فيما لا يوجد في كتاب	للتيفاشي
نزهة النفوس ودفتر العلم وروضة العروس	لمجهول
النساء	لابن الجوزي
النكاح في اللغة	لابن القطاع
نواضر الايك في نوادر النيك	للسيوطي
الوافي بالوفيات	للصفدي
الوشاح في فوائد النكاح	للسيوطي
اليواقيت الثمينة	»

٢ – المطبوعات

أخبار أبي نواس	لأبي هفان
الاعلام	للزركلي
الاغاني	للأصبهاني
ألف ليلة وليلة	
الامتاع والمؤآنسة	للتوحيدي
البصائر والذخائر	»
بلوغ الارب	للآلوسي
بين الخلفاء والخلعاء	لصلاح الدين المنجد
تاريخ الإسلام	للذهبي
تاريخ بغداد	للخطيب البغدادي
تاريخ البيهقي	ترجمة الدكتور يحيى الخشاب
تحفة العروس	للتيجاني
تفسير جمال الدين القاسمي	
تفسير الامام القرطبي	
تفسير ابن كثير	

تسهيل المنافع في الطب	للأزرق
ثمار القلوب	للثعالبي
جمال المرأة عند العرب	لصلاح الدين المنجد
جهار مقاله	للعروضي ، ترجمة الخشاب
حديث الاربعاء	لطه حسين
الحضارة الاسلامية في القرن الرابع	لآدم متز
الحكايات العجيبة والاخبار الغريبة	نشرة فير
الحيوان	للجاحظ
خلق الإنسان	للزجاج – تحقيق إبراهيم السامرائي
الديارات	للشابشتي
الديارات النصرانية في الإسلام	لحبيب الزيات
ديوان ابن الرومي	
» الاحوص	
» الاعشى	
» امرىء القيس	
» النابغة الذبياني	
» بشّار بن برد	
» جـــرير	
» الفرزدق	
ذم الهوى	لابن الجوزي
رجوع الشيخ إلى صباه	لابن كمال باشا
رسالة في شرى الرقيق	لابن بطلان
الروض العاطر	للنفزاوي
روضة المحبين	لابن قيم الجوزية
روضة القضاة	للسمناني

زهر الآداب	للحصري
شرح المعلقات العشر	للشنقيطي
طبقات الشعراء	لابن المعتز
طبقات فحول الشعراء	لابن سلام
الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس	للمنجد
عشق القيان	للجاحظ
العقد الفريد	لابن عبد ربه
غاية الشهوات ومجمع اللذات	لمجهول ، طبع حجر
فخر السودان على البيضان	للجاحظ
عروس العرائس	نشرة صلاح المنجد
الفهرست	لابن النديم
القصيدة اليتيمة	لدوقلة المنبجي
مجمع الامثال	للميداني
المحاسن والاضداد	للجاحظ
المزهر في اللغة	للسيوطي
مطالع البدور	للغزولي
معجم الادباء	لياقوت
موسوعة الفقه الاسلامي	
الميزان	للشعراني
المفاخرة بين الجواري والغلمان	للجاحظ
نساء الخلفاء	لابن الساعي
نقط العروس	لابن حزم
يتيمة الدهر	للثعالبي

٣ – المصادر الغربية

Nikita Elisseeff, *Thêmes et Motifs des mille et une nuits* Damas, 1949

Richad Lewinsohn, *Histoire de la vie sexuelle.* Paris, 1956

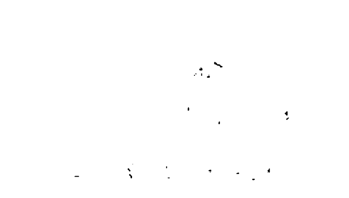
Kanwar Lal, *The Culte of Desire, An Intrepretation of Erotic Sculpture of India,* New Hyde Park New york, 1966

Madqe Garland, *The changing face of Beauty* New york, 1957

فهرس الموضوعات

من آثار الدكتور صلاح الدين المنجد

١ — جمال المرأة عند العرب	ط ٢	بيروت	١٩٦٩
٢ — الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس	ط ٣	»	١٩٦٩
٣ — بين الخلفاء والخلعاء	ط ٢	»	١٩٧٤
٤ — نساء عاشقات	ط ٢	»	١٩٦٧
٥ — المستظرف من أخبار الجواري للسيوطي (تحقيق)	ط ١	»	١٩٦٣
٦ — القصيدة اليتيمة لدوقلة المنبجي (تحقيق)	ط ٢	»	١٩٧٥
٧ — عروس العرائس (تحقيق)	ط ١	»	١٩٦٠
٨ — نزهة الجلساء في أشعار النساء للسيوطي (تحقيق)	ط ٢	»	١٩٧٥
٩ — مؤلفات الحب عند العرب	ط ١	»	١٩٧٥



انتهى طبع هذا الكتاب
في الثلاثين من كانون الثاني ١٩٧٥
على مطابع دار الأمان – درعون